UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190936

UNIVERSAL
LIBRARY

جان جاك روسو

حياته وكتبه

تأليف

الدكتور
محمد باشا حسين هيكل
المحامي

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظه

١٩٢٢ — ١٣٤٠

مطبعة التقدم لشارع محمد علي بمصر

كان طليعة للرومانتزم لانه ترك الماضى بجملته وترك اليونان والرومان وانتزع روايته من الحياة المحيطة به وأقام أشخاصها من بين الاشخاص الذين عرفهم والذين كانوا يعيشون معيشة كل أهل زمانه . وكان رومانسك (روائيا) لان أشخاصه كانوا في عواطفهم وفي حياتهم وفي تفكيراتهم روائيين يغلون في كل مايخصهم .يحبون الى حد الجنون ويضعفون الى حد الجريمة ويتوبون الى حد الطهر الاقصى ويعيشون معيشة حلم وأمل بحت . ولعمرك هل عرفت فيمن عرفت أمثال جولي في ضعفها وفي عقلها وفي منطقها الخطابى وفي توبتها وفي مقامها بين زوجها وعشيقها وفي موتها واعترافها . أم هل عرفت مثل زوجها في فلسفته التى بلغت من تحكيم العقل ان اعدمت عنده كل عاطفة وكل شعور وكل أثرة وكل غيرة . وسان پرى وكلير وميلوردا دوار . هل في الحياة أشخاص مثلهم . أم أنهم جميعاً خلق خيال متوهج يبلغ من بريقه أن يسبى القاري بله القارئة عن نفسه ويسلبه وقته وهو بذلك فرح وله مستريح .

اخشى ان أكون قد غلوت . فقد ظهر في عالم الادب بعد ثنى عشرة سنة من ظهور الهلويز كتاب صغير الحجم الى جانب الروايا الضخمة كان روائيا (رومانسك) أكثر من رواية روسو وحاز من النجاح ماحازت ان لم يكن أكثر . أقصد قصة آلاء

فرتر التي وضعها الكاتب الفيلسوف الالماني جيت (Goethe) وفيها قص حديث غرامه مع شارلوت ووضعها في صورة المراسلة ووصف فيها حالا نفسية تزيد في دقتها الفلسفية على حال سان پري بكثير . ولسنا نريد في هذا المقام ان نقارن بين الكتابين الامن حيث تشابههما في الوضع، ولان فرتر كان يعشق شارلوت المخطوبة الي البير كما كان سان پري يهيم بجولي زوج فولمار، ولان البير وفولمار كانا على درجة واحدة في فلسفة الغيرة . أما كتاب جيت فيمتاز بانه اصدق لجهة وأقوى عاطفة . ويرجع ذلك الى أن جيت كتب قصة حبه ولا يزال حبه ملتهبا . فلما أتمها شعر بحبه وقد تلاشى وكأنما كان قد ملك شارلوت بنشره قصة غرامهما . أما روسو فكان يقص أحلامه وأوهامه ويحكي في شيخوخته ذكريات شباب مفقود . كذلك فان الحادث الحاسم في رواية روسو سخيف مصطنع . أما فرتر فقد بلغ من شدة وجده حتى انتحر هياما بمحبوبته وحتى نشر بذلك في جو اوربا كلها فكرة انتحار العاشق الذى أسقط في يده .

اذن فقصة جيت هي قصة الحياة والحب والموت . وقصة روسو هى قصة الحب المتطاير على أجنحة الخيال والوهم . وان يك وهمه بديعاً وخياله ساحراً

على ان سحر خياله وابداع وهمه لم ينس أهل عصره مانقص

قصته من صنعة روائية . فقد لاحظ كثيرون — ومنهم مدام دبناي — ان المؤلف كثير الظهور في خطابات أبطاله .والواقع ان أكثر من نصف الرواية لايخص ابطالها ولا يتعلق بوقائعها وانما هي اراء روسو في المبارزة وحياة باريس والاقتصاد المنزلى والتربية وماسوي ذلك مما مر بك . وتلك اراء لا تقتضيها مواقف أبطال الرواية. فدسها فيها هو اذن حشو شنيع تأباه الصنعة كل الاباء

كذلك فان مواقف الرواية ملفقة تلفيقاً مدهشاً لا يبرره الا حياة روسو المدهشة. على ان بين الموقفين من الفرق ان روسو لم يكن يوما من الايام مختاراً في حياته على حين كان أشخاص روايته مطلق الاختيار في كل ظروف الحياة . فهو لم يعش الا كما أرادت السيدات دفارنس ودبناى ودودتو ودلكسمبور . أما جولى فكانت من يوم اقترانها تعيش كما تشاء، وكان كل المحيطين بها — حتى سان پري — يكيفون عقولهم وقلوبهم كما يحبون ويزجون بها في أعمق أعماق التصور الروائى طوعا واختياراً

ولم يكن ذلك بالغريب فيهم اذا نحن رجعنا الى منطق جان جاك . فقد كان منطقاً تحكميا قائما على أساس من الالهام في أبسط درجاته أكثر صدوراً عن دفعات العاطفة والشعور منه عن وزن العقل للاشياء وتقريره قيمتها وتحليله اياها . وكانت الاشياء كلها مادية وغير مادية يغشاها أمام عقله ستار من الخيال فيخرجها

عن صورتها العادية وعن صورتها المعقولة أحيانا

هذه عيوب تبدو لنا اليوم جسيمة بالغة . لكنها لم تضعف من قيمة رواية روسو ولم تقف في سبيل نجاحها نجاحاً فاق كل ما كان يطمع فيه غيره من الكتاب . ولا عجب . فهي تخاطب الاحساس والقلب بلا واسطة وتصل الى دخيلة الفؤاد وتهز خفايا الجوانح بما تعبر عنه من مختلف الوجدانيات وما تنشره من بدائع صور الطبيعة الناطقة وما تجريه من دموع وما تثيره من توجعات

ولا زلنا ولن يزال من بعدنا يعجب بما فيها من صور يزينها روسو ادباء عصره وكتاب القرن الثامن عشر في التمثيل والحس والخيال ووصف الطبيعة وان لم نتشارك نحن ولا من بعدنا مع أهل ذلك العصر حين جنوا بها جنونا

ولقد كان روسو في حل من ان يتذوق لذة هذا النجاح كاملة لو ان نفسه كانت مطمئنة ولو لم يزدد بنجاحه اضطرابا بين ماضيه الحقير وعظمته الحاضرة وتردده الذي كان سبب اضطرابه . ولو أنه من الاقدام ما كان فولتير أو عشر معشار ما كانه نابليون لجلس بعد ذلك النجاح على عرش أعز قائمة من عروش الملوك ولما قدرت حكومة على أن تصدر قراراً كالذي صدر بالقبض عليه بعد نشر كتاب التربية ولكان صاحب اليد والمن على جماعة الكسمبور بالاقامة بين أظهرهم . لكن شيئاً

من الضعة كان عالقا بنفسه ممتزجا بوجوده طبيعياً فيه فلم تقو الظروف على التغلب عليه أو اخفائه. فشعر كأن الناس طراً يحسدونه حتى أخذ على مدام دلكسمبور شيئاً من جفوته . لكنه بقي في تعلقه بهم تعلق الصغير بالكبير والتابع بالمتبوع يتعزي عن جفاء السيدة برقة زوجها ويحس بضرورة بقائه الي جانبه يعزيه عن مصائبه فى فقد أخيه وابنه الوحيد وابن ابنه حتى ظهر كتاب العقد الاجتماعى وكتاب التربية في السنة التالية (١٧٦٢). وكان ظهور كتاب التربية بدءعودته للحياة المتشردة التجأ اليها بسبب قرار برلمان باريس بالقبض عليه وفراره الى سويسرا على النحو الذى شرحناه في الفصل السابق

والقارىء لاشك سيدهش بعد تحليلنا كتاب التربية للسبب الذى أدى لصدور قرار البرلمان، وسيري مبلغ التطور العظيم الذى تم في العصر الاخير من عصور الانسانية والذي يرجع الفضل فيه للثورة الفرنسوية التى اتخذت روسو مسيحها الهادى ونبيها المرسل . وانه بعد ذلك ليزداد تقديرا لهذا المتشرد الوضيع الطريد واحتراما لنبوغ نادر المثال . فانما نبوغ روسو مصدره القلب ومكانه موضع الايمان في النفس :

٨٩٣١

الانسان طيب بفطرته . وانما أفسده الاجتماع الذى غشى على تلك الفطرة بما اوغل فيه من صور الحضارة وبابتعاده عن الحال الطبيعية وامعانه فى ذلك حتى بلغ غاية التدهور في القرن الثامن عشر . ولا سبيل لاصلاح هذا الفساد الا بايقاف تياره والعودة بالاخلاق والعوائد والعقائد والقوانين وكل ما في الاجتماع الى أحضان الطبيعة والسير على نظامها وسنتها . يومئذ تزول من الاجتماع سمومه ويرجع الانسان طيباً بالطبع كما كان .

ومن العبث محاولة هذه العودة من طريق الملوك والاشراف والكبراء . فلو أنك أقنعت هؤلاء جميعاً بضرورة تغيير النظام الفاسد الذي هم فيه لما وصلت من اقناعهم الي طائل . فان الحياة عادة والعادة طبيعة ثانية . وهم قد جمدوا عند ذلك النوع من العيش بعد ماعانوه سنين طوالا . وانك لن تنقل رجلا من الابيقورية المتطرفة الى الرواقية المتطرفة عن طريق اقناعه بأفضلية مذهب على مذهب .

ماهي اذن وسيلة روسو الى الاصلاح الذى ينشده ؟

وسيلته التربية . فهو يريد أن يدع جانبا ذلك المجتمع الفاسد الذى يحيط به ، والذي يخضع هو لحكمه خضوعا يضطره مع الطعن

عليه تمليقه . ومع احتقاره لاكباره . ومع الايمان بفساده للارتماء في أحضانه، ليمد سلطانه على مملكة الاطفال البريئة الضعيفة العاجزة عن المقاومة المستعدة للتأثر وللانطباع في قالب الطبيعة الذي يهيئه هذا المصلح الاخلاقي لها .

ولايضاح هذه الوسيلة وضع كتابه عن التربية

فبعد ما فرغ من روايته في سنة ١٧٥٨ وبعد ماوصل من تطهير أبطاله فيها ان جعلهم يعيشون وفق قانون الطبيعة ويربون أولادهم مستلهمين وحيها عمد الى وضع كتاب (اميل أو التربية) وانقطع له وعنى به حتى أتمه وطبعه بمعونة المسيو (مالرب) ثم أخرجه للناس فيما يزيد على الالف صحيفة

لم يحدث ظهور اميل ما أحدثته الهلويز في الجمهور من ضجة . لكن ذلك لم يكن راجعاً الى قيمة الكتاب ونقد القراء له . وانما كان سببه ماتهامس الناس به من ان للكتاب ولمؤلفه في البرلمان شأنا وان البلاط عنه غير راض .

و (التربية) لاشك خير كتب روسو باجماع الكتاب قدماء ومحدثين، وهو من خير ما كتب في موضوعه . وليس يعيبه ما فيه من نظريات خيالية وأخرى فاسدة . فهو في مجموعه الثمرة الناضجة التي أنتجها عقل جان جاك، وهو أدق كتبه ملاحظة للواقع وأقربها لمنطق الفلاسفة الوضعيين وأسماها غاية وأبعدها أثراً .

و (التربية) ليس الاول مما كتبه روسو في هذا الموضوع ولا آخره. فقد عرض له في كثير من خطاباته الخاصة وشرحه بايجاز في مقال نشرته الانسيكلوبيديا بعنوان الاقتصاد السياسي وعالجه في روايه الهلويز ثم عاد اليه بعد نشر اميل في خطابه عن حكومة بولونيا . ولا عجب فقد دفعت الاقدار بروسو فكان أخلاقيا. والتربيـة هي الأساس الذي يجب ان تشاد عليه قواعد الخلق وكانت موضع بحث كثير من المؤلفين في ذلك العصر .

لكن روسو لم يكن أخلاقياً بطبيعته ولا بنوع تعليمه . بل كان اخلاقياً بالصدفة . وقد كانت نشأته الاولي مثلا أعلى لسوء التربية أو بالحري لعدم التربية . وان ما تقضت فيه سنيه الاولى من ألوان الفاقة والتشرد والبؤس وضعة النفس وخدمة الغير وما لوث ذلك به نفسه من خبائث الكذب والسرقة وعدم الوفاء وسائر النقائص ليبعده عن كل صلاح لوظيفة الاخلاق المهذب الداعي الي الفضيلة والي الرفعة الخلقية . كذلك لم تكن معالجته الموسيقى الي سن الاربعين من مهيئآت المصلح الاخلاق . وانما هي الصدفة التي أدت الى نجاح خطاب العلوم والفنون ونواله جائزة أكاديمية ديجون ومعارضة الكثيرين له واجابة روسو اياهم وحماسه لفكرة الرجعة الي الطبيعة ـ هذا كله هو ما جعل منه الرجل الاخلاق نصير الفضيلة و بطلها .

وهو مؤدب بالصدفة أيضا . ولعل القارىء يذكر فشله في تربيـة أولاد المسيو دمابلي بليون بعد مقامه سنة معهم ويذكر كيف انتهي بأن سرق نبيذاً من كهف المنزل ثم استقال فأقيل .

لكنه مع كل ذلك نابغة. فلم تكد فكرة الحال الطبيعيه تملكه حتى تمددت في خياله وأخذت عليـه حسه وملأت كل وجوده فقلبها على كل وجوهها واستثمرها في كافة مواضع نظره وتفكيره

ولما كان خطيباً في كتابته قويا في أسلوبه وكان قد طعن على النظام المحيط به وعلى الكبراء الذين كانوا فوق المطاعن وعلى السيدات موضع تمليق الملوك والاشراف والادباء فقـد حدق الكبراء به تعجباً واحتقاراً وتطلع الناس اليه اعجابا واكبارا . أما السيدات فمال بهن ضعفهن الي العطف عليه والتزلف اليه . فمال هو الى ناحيتهن . يدفعه ولعه الجنونى بهن . ولم يمنعه طعنه عليهن ، عن البقاء فى كنفهن . والخضوع لـكل أوامرهن . وتوثيق عري روابطه بهن . فجلس منهن مجلس القس المدنى يستمع لاعترافاتهن ، ويهديهن أقوم سبل الحياة ويسدى ثمين النصح اليهن ، والحق أنه ترك مجموعه نفيسة من الخطابات التى بعث بها لمستنصحاته تحوى خير الآراء في شتى المسائل وفي التربية .

ويدلنا ما ورد في (الاعترافات) على أن كتاب التربيـة لم يوضع قصداً ولا على نظام معين . وانما « الفت مجموعة هـذه

الملاحظات والتفكيرات الخالية من الترتيب والتتابع اجابة لرغبة أم صالحة قادرة على التفكير . وقد شرعت أول الامر في وضع مذكرة من بضع صحائف ثم استهوانى الموضوع بالرغم منى فأصبحت المذكرة أشبه بكتاب هو لاشك ضخم بالنظر الي مايحتويه ولكنه صغير جداً بالنسبة للموضوع الذى أعالجه ... وسيكون ماذكره عن أهمية التربية الصالحة قليلا . كذلك فلن أقف لاثبات فساد التربية الحاضرة فقد أثبت الف غيرى ذلك من قبل وليس من شأنى أن أحشو كتابا بما يعرفه الناس جميعاً . وانما أرى ان صيحة ارتفعت من زمان بعيد ضد طرائق التربيـة الحاضرة ولم يعن أحد باقتراح ماهو أحسن منها » . . .

اذن فقد وضع الكتاب بادىء الرأى اجابة لرغبة سـيدة من سيدات روسو . وضع ليكون مذكرة ثم امتدت صحائفه الى الالف عن غير شعور من مؤلفه ... وضع كما وضعت الهلويز سدادا لغرام روسو بالنساء ثم امتدت صحائفها الى الالف دفاعاً عن روسو وتحبيذاً له وتمجيداً لحياته .

وكما كان سان پرى صورة لروسو . فسيكون اميل ومؤدب اميل صورة لروسو أيضاً . وكما كانت نقائص سان پرى وسيلة سما بها الى ذروة الفضيلة التى سما روسو اليها ، فسيكون اميـل صورة روسو في صغره وستكون تربية اميـل مشابهة لتربيـة

روسو وسيصير اميل رجلا فاضلا مثلما صار روسو رجلا فاضلا . وليس في ذلك كله من عجب . فقد كان روسو يتوهم نفسه مثلا أعلى لصورة الكمال الاكمل .

***

استهل روسو كتاب التربية بكلمته المشهورة « يخرج كل شيء حسناً من بين يدي مبدع الكائنات ثم يعتوره الفساد والنقص بين يدى الانسان . فهو يكره أرضاً على أن تغذو نبات أرض أخرى وشجرة ان تحمل ثمر شجرة أخرى . وهو يخلط الطقوس والفصول ويخصى كلبه وحصانه وعبده ويقلب كل شيء ويفسد كل موجود . وهو يحب الشوه ويهوى الشناعة ولا يرتضى شيئاً على ما صورته الطبيعة ، حتى ولا الانسان . بل هو يريده مهذبا كما يحب كأنه حصان الملعب . ومشذبا كما يريد كأنه شجرة في حديقته »

عارض روسو في هذه الجملة ما بين سنة الطبيعة وسير الاجتماع . وندد فيها بالحضارة وما تجر اليه من تشويه وافساد واتلاف . وهذا التشويه والاتلاف هو أساس المدنية وأساس تعس الانسانية . ولو ان الانسان لم يسترسل مع كاذب غروره يريد اصلاح ما جعلته يد القدر صالحاً بطبعه لظل الناس في سكينتهم ولما نزلت بهم مصائب الهم والفاقة والتعس . فليرجع الناس سيرتهم الاولى حتى يرجع

اليهم نعيم الطبيعة

والتربية هي وسيلة الرجعة « فنحن نولد ضعافاً فتحوجنا القوة ، ومحرومين من كل شيء فتحوجنا المعونة . وبلهاء فيحوجنا الحكم والتقدير . وكل ماليس لنا يوم نولد ونحتاجه حين نكبر انما نحصله بالتربية . والتربية تحصل لنا من الطبيعة ومن الناس ومن الاشياء . فالنمو الداخلي لقوانا وأعضائنا يتأتى من تربية الطبيعة . ومعرفة الوسيلة للاستفادة من هذا النمو تتأتى من تربية الناس . ومحصول تجاربنا الذاتية عن الاشياء التي تحيط بنا انما نحصله من تربية الاشياء . » فاذا نحن وجهنا هذه الوسائل في سبيل الطبيعة حصل لنا الرجل الطبيعي على أتم معانيه .

لذلك يجب ان تكون غاية التربية عن أى طريق وصلتنا إن تنمي في الانسان من الملكات مايستطيع معه مكافحة الحياة بقوة وصلابة وشدة وان تقوى ذاتيته الي أقصى الحدود . وتلك غاية تتناقض مع ماترمي اليه التربية الحاضرة تمام التناقض . فانما توجه هذه التربية الحاضرة كل عنايتها لتصقل الفرد في سلك الجماعة وتشذب من ذاتيته مخافة ان يتنافر ابداع نظام الاجتماع . وتلك تربية تعسة تسلب المرء أكبر نعم الحياة . فهي تسلبه قوة الجسم اذ تحبسه بين الجدران مع القواعد والسيدات . وتسلبه ملكة التقدير اذ تجعله لايرى بعينه ولا يسمع بأذنه وانما يري

بعين المحيطين به ويسمع باذنهم . وتسلبه دقة النظر في الامور اذ تأخذ الجماعة عليه وقته ولا تدع له منه الا بمقدار يسمح له بتكوين رأي سطحي عن الاشياء يكفي ليسر به الجماعات وليكون به رقيقاً محبوبا لظرفه ولكياسته ولنفاقه .

هذا الفرد المصقول يفنى في الجمعية ويعيش لها على خلاف رجل الطبيعة الذى يعيش لنفسه . ومتى عاش الانسان للجمعية وخضع لنظاماتها انعدمت ذاتيته وحلت شخصية نسبية مكانها. وهذه الشخصية النسبية تذهب بالفرد الى الاعتقاد بعدم وجوده كفرد وبتمام ارتباطه بالجمعية التي هو جزء منها .

ذلك تعس لا تعس بعده . أتريد دليلا لروسو على ذلك : لقد بلغ من أثر هذه التربية في النفوس ان أصبحت الوطنية كبرى الفضائل الانسانيه وصارت الذاتية القوية كريهة عند الناس فاطلقوا عليها أسماء الاثرة وحب الذات واعتبروها من شر النقائص . ثم صرت تراهم يتغنون باحاديث الذين هانت عليهم نفوسهم في سبيل الجماعة أيا كان نوع هذا الهوان . فيتغنون بحديث القدموني بداريت تقدم الي عضوية مجلس الثلاثمائة ففشل فعاد فرحا بفشله مطمئناً ان كان في وطنه اسبرطة ثلاثمائة رجل خير منه . وبحديث اسبرطية خرجت تنتظر اخبار معركة لها خمس أبناء بين المحاربين فيها. ولما عاد بعض الجند سألته وهي

ترتعد ، فأخبرها ان ابنائها الخمس قتلوا . فصاحت به ما عن هذا سألتك أيها العبد الزنيم . فلما علمت بأن النصر تم لقومها طارت الي المعبد تشكر الآلهة

هـذا النوع من التربية هو عند روسو اغراق في تقديس الجماعة على حساب الفرد بما يخالف سـنة الطبيعة . وانما تقضى الطبيعه بتربيـه الانسان ليكون رجـلا لا ليكون رومانيا ولا افرنسيا ولا مصريا كما تقضى بان لا يعلم صناعة خاصة . بذلك تراه اذا صار رجـلا صار صالحاً لكل مركز يضعه الحظ فيه . « وأحسننا يومئذ لخير الحياة وشرها احتمالا هو عندى احسننا تربية وخيرنا مكانا »

فما ان يكون غرض التربية الاسمي تكوين الانسان لحسن احتمال الحياة فذلك مايقره أهل هذا الجيل الحاضر ... ولقد انتشرت الفكرة بعدما كتبها روسو وصرت تقرأها فى كل كتب التربية كأنها بعض بديهيات الموضوع . وهى لم تكن غريبة في عصر روسو لكنها كانت طريفة يتناقلها الخاصة . حكت مدام دبناي في مذكراتها انها زارت المسيو لينان (Linant) مهذب ابنهـا ومعها المسيو دكلو (Duclos) . وقد ناقش دكلو المعـلم في أمر تربية الطفل وقال له : علمه قليلا من اللاتينيه ولا تعلمه اليونانية أبداً فليس فيها له أى فائدة . ونحن لا نريد به ان يكون انكليزيا أو رومانياً

أو مصريا أو يونانيا أو اسبرطيا وانما نريد به ان يكون رجلا صالحا لكل شيء .

وأما رغبة روسو عن ان تغرس التربية في نفس الطفل حب وطنه فلا تعدو فكرة الاشتراكيين . وهي فكرة لم تتحقق بعد . وقد لا تتحقق أبدا ولو تمت على الارض كلمة الاشتراكية الا ان تصل التربية من توسيع أفق نظر الناس جميعاً حتى يصبح العالم كله وطناً لهم .

ولم يك روسو مؤمناً بهذه الفكرة . فانما كتبه في التربية قبل (اميل) وبعده ينقضها وينفيها . ولعل مارأينا من مظاهر هيام سانپري بسويسرا في رواية الهلويز مايدلنا على مبلغ عشق روسو لوطنه . كذلك جاء في مقال الانسيكلوپيديا عن الاقتصاد السياسي ما يأتي : « اذا ربى الاطفال جميعاً في أحضان المساواة واشربوا احترام قوانين الحكومة والقواعد العامة ، واحيطوا بأمثال وأشياء لاتنفك تناجيهم باسم الأم الحنون التي تغذوهم ، ولا تفتأ تحدثهم عما تحمله لهم في حناياها من الحب وما ينالونه منها من خير لا يقدر ، وما يجب عليهم لها في مقابل ذلك كله ، اذن لرأيتهم وقد أدركوا كيف يحبون بعضهم محبة الاخ لاخيه وكيف يقفون بارادتهم عند ما تريده الجماعة » . وهو أكثر قوة عند كلامه عن هذا الشأن من شؤون التربية في خطابه عن حكومة

بولونيا . فقد قال فيه : « يجب ان تطبع التربية النفوس في قالب الصورة الوطنية وأن توجه الافكار والاذواق وجهة تجعلها وطنية بالميل وبالشهوة وبالضرورة . ولذلك يجب ان يفتح الطفل عينه أول مايفتحها على وطنه، ثم لا يرى شيئاً غيره الى ان يموت. وكل جمهوري صادق يرضع محبة وطنه مع لبن أمه ويولع لذلك بمحبة الشرع والحرية . وهذا الحب هو قوام حياته . فاذا انفرد أصبح صفراً . واذا لم يبق له وطن لم يبق له وجود . فان لم يمت بعد ذلك فهو شر من المائت . »

اذن فرأي روسو هو ضرورة توجيه التربية وجهة وطنية صادقة، وان لاحد للغلو في هـذا السبيل . ذلك رأيه قبل كتاب التربية ورأيه بعـده . لذلك نرانا في حل من القول بأن الرأي الذي أورده في كتاب التربية لم يكن الا رأياً عارضاً ربما كان سببه سوء استقبال كتابه عن المناظر في مدينة جنيف

ونحن نعتقد ذلك لان روسو كان وطنياً صميما . وهو لم يولع حياته بشيء ولعه بكل شيء في سويسرا . فكانت مناظرها وحكومتها وبساطة أهلها ونوع عيشهم أمثالا عليا في نظره لما يجب ان يكون . ألا تراه بعد ارتداده عن البروتستانتيه الى الكثلكة وبعد عيشه السنين الطوال مع مدام دفارنس وبعد اقامته في باريس لم يلبث ان فكر في استرداد حق مدنيتـه في

جنيف حتى رجع الى دين قومه وبقى عليه بقية حياته ودافع عنه خير دفاع :فكيف به ينزع الى الطعن على الوطنية الا ان يكون ذلك نزعة عارضة سرعان مازالت بزوال سببها العارض هو الآخر .

لذلك كان عجيبا ان يطعن في كتاب التربيـة على التربية الوطنيه . واعجب منه ان يدافع عن رأيه العارض بكل قوته. وما نود له ان يكون سوء استقبال كتابه عن المناظر في جنيف هو سبب ثورته . وانما نعتذر عنه بانه أراد ان يبنى التربيه على قواعد الطبيعة والطبيعـة لاوطن لها . والقاريء في حل من تقدير قيمة هذا العذر .

فاما نحن فنريد قبل الانتقال من هذه النقطة للخوض فيما رسمه روسو طريقا للتربيـة ان ندلي برأينا وأن نشير الي خطأ هـذا الرأى العارض وأن نقول بوجوب ارضـاع الطفل حب وطنه مع لبن أمه . فانما التربيـة طبع صورة حياة المجموع في نفس الفرد على خير مايضمن سعادة المجموع والفرد معا . ومن باطل الغرور توهم قيامها بما سوى ذلك . وعليه فما دام في العالم امم مختلفة متنافسة فيجب عل أهـل كل امة ان يدافعوا عن حدودها وان يضحوا في هذا الدفاع بكل ماعندهم . ولا يتأتى ذلك الا اذا هم احبو بلادهم اكثر من حبهم انفسهم . . وتلك هى الوطنية .

قد يقول بعضهم ان هـذا الخلاف وتلك المنافسـة شرور يجب محوها من العالم . ولكن على رسلكم ايها القائلون . انكم ترجعون الي النظريات القديمة التى ترى للمطلق وجودا في الواقع وتقرر قواعد الخير والشر والحق والباطل وتقصدون مما تقولون الي طبع النفس الطفلة الخاليـة من كل معنى بطابع هذه المعانى. ولكن هذه النظريات وتلك المعانى المطلقة دخلت اليوم فى حكم الخيال الشعري يرتكن عليه أمل الانسانية في طموحها الي الامام ولا يركن اليه علم يستمد وجوده من الواقع . ويجب ان تكون التربية علما واقعيا بعيدا عن صور الخيال والوهم. وافكار الاخاء العام والدوليـة الهادمة للحـدود والعـالم كوطن لكل بنى الانسان لاتزال في حيز الامل نرجوا ان نحققها لكننا لا نستطيع ان نمنع على الناشىء العلم بما هو حاصل وبوجود الامم وتنافسها

انا نكتب ما نكتب الآن والالم يحز فى نفوسنا وكلنا الاسف ان خلقنا في عصر تعس كله الاثرة والظلم . ولكننا يجب أن نواجه الواقع اذا أردنا التأثير فيه . يجب ان نعلم ان التربية التى ننشأ ابناءنا عليها ليست هي كل شيء في تكوين حياتهم . انما هى حلقة من حلقات لاعدد لها متصلة كلها متشابكة ببعضها ، مجموعها هو مجموع عوامل حياة الاجتماع الانسانى . ويجب ان تكون هذه الحلقة متسقة الجواب مع غيرها من الحلقات حتى

تثمر والا كانت وهما في الوجود لاأثر له

أتريد على ذلك دليلا. هاهم الاشتراكيون انفقوا جهودا طائلة في سبيل هدم الحدود بين عمال العالم ليكونوا جميعا امة واحدة .فما لبثت الحرب ان استعرت في سنة ١٩١٤ حتى نزلوا عن فكرتهم وحتى كرسوا جهودهم للدفاع عن اوطانهم . ذلك بأن فكرتهم لم تكن متسقة مع صورة الوجود وان كانت فكرة ملايين عدة من رجال العالم . . . فكيف يمكن اذن ان تضعها قاعدة لتربية ولا تخشى افلاسها

ليست التربية هي الاساس الاول لتطور العالم وسيره نحو الكمال : انما ذلك الاساس الاول هو مجهود العقول الناضجة الذي يوجه الجماعة الانسانية في سبيل من التطور البطيء يدفعها الي غاية من الكمال أو النقص ليس في مقدور علم الانسان وهو على مالا يزال عليه من ضعف وعجزان يتكهن بها . وهذا التطور البطيء لاينتقل بالانسانية خطوة الي مابعدها الا ان تكون مرتبطة بها ارتباط الحاضر بالماضى وارتباط المستقبل بهما جميعا. ولا نزال نرى بعيدا ذلك اليوم الذي تندك فيه حدود الامم وتمتزج فيه الاجناس واللغات وتتحد فيه العقائد والمصالح . وما دام ذلك باقيا ويمكن اذ يثير نزاعا وحربا فسيبقي التعصب كمينا في النفس الانسانيه . والوطنية ليست الاعقيدة

وايمانا تحتمل التصعب لها . بل لقد تكون حتى اليوم اشرف مايصح التصعب له .

لذلك كله رجع روسو عن رأيه الذى دافع عنه في كتاب التربيه وعاد الى وجوب ارضاع الطفل حب وطنه مع لبن امه. ولا يقصد روسو ولا نقصد نحن من ذلك الي ان تقصر التربية همها على تكوين العقيدة الوطنية في نفس الناشىء . بل يجب ان تقيم في نفسه الي جانب الاستعداد التام للحياة الذي يعيشها معنى ساميا مما يجب أن يسود بين الناس من الايمان بالانسانيه وبحقوق الاخاء بين بنى آدم وبضرورة التسامح والتعاون والتضامن بين الامم كما يجب أن تنمى في نفس الطفل صفات الرجوله والشهامه والاعتماد على النفس وعدم الاعتداء بمعونة الغير ولا الاستكانة لحماية الجمعيه « فليس العيش كما قال روسو ان نتنفس ونحن رقود ولكن العيش ان نعمل وان نستعمل كل اعضائنا وقوانا وحواسنا وكل مايجعلنا نشعر بأننا نعيش . وليس اطول الناس عمرا اكثرهم فى السنين عددا بل اطولهم عمرا اشدهم للحياه ادراكا واكثرهم بالحياة شعورا واحساسا » . . . لكن تضامن بنى الوطن الواحد مقدم على تضامن الامم المختلفه كما ان التضامن بين افراد البيت الواحد مقدم على التضامن بين مجموع اهل المدينة . فاذا احتكت امتان وجب ان ينتصر

بتوكل أمه لها مهما كلفهم هذا الانتصار من تضحية .

ذلك رأينا يشترك فيه قلبنا وعقلنا وهو عندنا وحي الطبيعه والهام الحياه .

***

والآن ننتقل لنري مارسمه روسو طريقا للتربيه .

كنا نتوقع ان تتجه عناية روسو رسول المساواة ونصير الضعفاء والفقراء الى تربية سواد الشعب الذي كان مهملا ذلك العصر في فرنسا اهماله اليوم في مصر . وكنا ننتظر منه ان يبين الوسيلة لتعميم التربيه بما يسمح لجميع الاطفال بحظ منها يؤهلهم لمكافحة الحياة وللعيش مع الجماعة عيشا مدنيا كريما . وكنا نود لو نري المدينة الفاضله مشيدة عنده على اساس من تربيه المجموع تربيه طيبة . لكنا مع كثير من الاسف نرى كتاب روسو عن التربية خلوا من هذا كله. بل ونراه يقرر ان الفقراء والضعفاء في غير حاجة الى التربية لان مركزهم في الحياة يكرههم على احتمال العيش الذي هم فيه .

ولعل ما ذكره روسو في اعترافاته من أنه كتب (اميل) اجابة لطلب أم فاضلة قديرة على التفكير هو سبب هذا التناقض المعيب بين مركزه كمصلح ديموقراطي وبين ما ذكره في كتابه . فان هذه الأم الفاضلة هي لاشك احدى هاتيك النبيلات والجميلات

ممن كان يعيش في كنفهن ويخطب ودهن ويرجو رضاهن . كما انما أخذ نفسه به من الطعن على الكبراء والاشراف مع التقرب منهم والتزلف اليهم كان له كذلك أثر على اختياره غير قليل . ولو انه كتب رسالة عرض فيها لتربية الشعب لما عنيت جميلة من النبلاء ولاعنى عظيم من الاشراف بقراءته . وللنبيلات وللأشراف وحدهم كتب روسو من يوم علا نجمه . ومنهم وحدهم كان يتقرب وبهن وحدهن كان يولع .

وليته كتب كتابه لطبقة الاشراف جملة . كلا بل كان هذا المشرد ابن الشعب ارستقراطيا أكثر من الارستقراطيين . فرأى ان التربية الصحيحة لا تتأتى الا بنزع الطفل من أهله وربطه مع مربيه برباط ضيق فلا يفترقان حتى يبلغ الطفل (اميل) اشده وحتى يصبح رجلا وحتى يتزوج ويولد له ولد .

وقد اختار روسو الطفل الذي أراد ان يعالج تربيته نبيلا غنياً ولد في طقس معتدل ونشأ قويا صحيحا . وهو لم يقم فعلا بتربية أحد ابناء النبلاء في ذلك العصر لأن المربي في نظره يجب ان يكون شابا اعزب يعرف واجبات الرجولة ويستطيع ان يلهمها الطفل من ان غير يعامه اياها .

وكتاب التربيـة يتناقض في هذا الاختيار للطفل والمربي وهذا الارتباط بينهما مع مقال الاقتصاد السياسي ورسالة حكومة

بولونيا . فقد كان روسو فيهما يري وجوب تربية الاطفال جميعاً معاً من غير تمييز بين أبناء الاشراف وابناء سواد الشعب . وكان يري ان لا يبقى المعلمون مع تلاميذهم زمناً طويلا . وكان يرى ان تتولي الحكومة أمور التربيـة والتعليم . لكنه في هذين المكتوبين كان يعرض للتربية عرضاً لا قصداً ومن غير تفكير فيما تحدثه اراؤه فيها عند الطبقات الممتازة من أثر . لذلك كان أقرب الى الحق وأبعد عن التكلف .

على أنه كان متفق الرأى في كتبه جميعاً على ضرورة فصـل الناشئة عن الجماعة بل وعن العائلة . وهو في هذا منتج مع نفسه اذ كان يرى الجماعة قد وصلت الى الدرك الاسفل من الفساد والانحطاط . وللمثل في التربيـة أثر كبير بل له كل الأثر . فاذا ترك الاطفال وسط الجماعة أخذوا بعاداتها واخلاقها وعقائدها وصاروا مثلها ومنها وانحطوا انحطاطها ونزلوا الى الدرك الذي نزلت اليه

ولروسو حق فيما يقول بعد الذى نعاه على جمعية عصره من فساد وتدهور . لكن رأيه مع ذلك لم يسلم من أكثر من اعتراض وجيه . فأنت مهما فصلت الناشئة عن الجماعة وعن الاسرة فانك لن تمحو فيها أثر الوراثة ولا أثر الاجتماع . واذا صحت ملاحظة داروين من ان الجنـين الانسانى يمر أثناء تكوينـه بالتطورات

الجنينية للخلائق التى تسلسل منها الانسان فان الطفل يمر من اول نشأته الى حين تمام تكوينه بالادوار التى مرت بها الجماعة الانسانية خلال قرون الماضى الطويلة ليصل حتما آخر الامر الي مشابهة الجماعة التى هو منها ولو اقتصرت المشابهة على جهات فضائل هذه الجماعة . اما الظن بتكوين مخلوق جديد ليس بينه وبين جماعته اتصال فوهم لا يمكن تحقيقه .

وكيف يتحقق والمربى ليس الافراد من الجماعه . ولم يفكر روسو في ان يفرد فتاه في مثل وحدة حي بن يقظان بل ترك للمربى ان يسير وتلميذه بين مناظر الاجتماع وأهله وأشرك هؤلاء الاهل على ماسنري في أطوار التربية المختلفة وسمح لتلميذه بقراءة بعض الكتب . فهذا كله كاف وفوق الكفاية ليطبع صورة المجموع في نفس الطفل وفي ذهن الناشىء وفي عقل الفتى وكاف ليبعده عن مثال رجل الطبيعة الذي يريده روسو . وكل مافيه أنه يضمن الي حدما تكوين رجل لم تدنسه النقائص لانه لم يلامسها، ولكنه لا يضمن حماية هذا الرجل بعد ان يترك حراً ليختلط بالجماعة من الارتكاس في هذه النقائص : وربما كنا اميل للأخذ في هذا الباب برأي قاسم امين اذ يري ان رياضة النفس على مقاومة النقائص تقوي الارادة وتحمي من الزلة اكثر مما يحمي تجنبها والحذر منها فقد تقترب النقائص منا من غير علمنا فلا نقوى

على محاربتها لعدم تعودنا هذه المحاربة. قال : «في ميدان الحرب لايكون ثبات الجأش الا عنـد الرجل الذى حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوما مهاجماً ويوما مدافعاً . كذلك الحال في جهاد النفس . لاتجد ثبات الجنان الا عند الرجل الذى عرض نفسه لاستهواء الشهوات وخدائع اللذات. فاذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليهـا بعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه. وتلك هى الفضيلة الحقيقية . خلافا للرجل الذى احتجب عن جواذب الشهوات .فانه متى وجد أمام فرص مرغبة فيها لايقاوم سلطانها الا قليلا واذا سلم في نفسه مرة لايستطيع الخلاص منها »

ونزع الطفل من عائلته فيه فضلا عن ذلك عيب حرمان الطفل من ارق معانى الحياة التى لاتوجد الا في عواطف الابوة والامومة والبنوة . هذه العواطف القوية السامية الدائمة النضرة والشباب حتى في أقسى القلوب وأجفها . والاثر المباشر الذي يترتب على حرمان الطفل من هذه المعانى هو شعوره بالجفوة واعتياده شيئا من غلظة الكبد مع التستر بظاهر من رقة الشعور وقوة الاحساس ابتغاء نوال عطف من الناس يعوض عليه العطف الطبيعى الذي فقده . وروسو نفسه مثل حي للطفل اليتيم الابوين . فما من أحد شعر بعطف الامومة وحنان الابوة ليرضى طرح أبنائه فى ملجأ القطاء . وما من أحد شعر بهما ثم يرضى هذا العيش المزدوج

عيش النفاق الدائم الذي عاشه روسو طول حياته . ولكن روسو لم يكن ليشعر بهذا ولم يكن يتصوره . وقد أبدع له القدر ان يشعر بانه خير الناس وأطيبهم ليخفف بذلك عنده من ألم الشعور بصغره وحقارته . وبرر نبوغه هذا الشعور عنده . فلم يقدر مع ذلك مبلغ مايحرم منه تلاميذه بنزعه من أهله . .

حبذا أفلاطون وتلاميذه الشيوعية وانتشرت تعاليمهم في جو الاغريق . ومن نتائج الشيوعية الغاء الزواج والعائلة ، فردارسطو بكلمة نوردها هنا رداً على فكرة الافراد التي نزع اليها روسو قال : « اذا وضعت عدة نقط من الشهد في اناء واسع ممتلأ ماء ضاع طعمها الشهى . وكذلك فاذا الغيت العائلة ضاع ذلك المعنى الرقيق الذي يجعل لاسماء الأب والأخ اعزازا خاصا . اذ يصبح ولا محل له . وحل عدم الاهتمام المطلق محل المحبة العائلية . وهؤلاء الشيوعيون يكثرون من الماء المضاف الى شهدهم فيضيعون منه كل طعم ومعنى » وهذا الافراد الذي يريده روسو ينتج مثل تلك النتيجة . وكثيراً ما رأينا شبانا تشردهم الاقدار عن أهلهم وعشيرتهم فاذا شبوا بعد ذلك وكبروا رأيت العلاقة بينهم وبين أهلهم علاقة ضعيفة يستبقيها الواجب الاجتماعى من غير ان يكون فيها للعاطفة أو القلب أو الشعور أي أثر .

وجه الى فكرة نزع الطفل من أهله اعتراض ثالث ليس أقل

وجاهة من سابقيه . ذلك ان تربية الانسان تستمر طول حياته . وللاطفال عامة وللابناء خاصة أثر كبير في حياة الكبار والاهل. فهم يبعثون الي قطوب المشيب ابتسامة الصغر ويحيون في القلب الذي جف وقسا عواطف رقيقة تجعل الحياة اكثر لذة وعذوبة. ثم هم مركز دائرة عواطف الاسرة التى هم فيها. فهم يجمعون بين قلوب أهل هذه الاسرة بالطف جامعة تقرها الطبيعه وتدعو اليها. ويكفيك ان تري بضع أطفال معـا يتضاحكون ومن حولهم أمهاتهم وآبائهم واقرباؤهم ينظرون اليهم بعيون كلها الحنان والمحبة والعطف ويتبادلون فيما بينهم مثل هذه النظرات وينسون خلال ذلك مصالح الحيـاة التى كانو يقتتـلون من ساعة مضت بسببها . وهم في اثناء وجودهم مع الاطفال يترفعون دائما عن مقارفة النقائص كبرا عن أن يراهم الصغار في صغائرهم وحرصا على تقديم المثل الطيب للناشئة التى يريدونها مثال الكمال . فهذه العواطف الطيبة وهذه التربية المتبادلة بين الجيل المتدرك الى الماضى والجيل المتـدرج الي المستقبل لاتكون اذا أخذ بنظرية روسو وافرد الطفل يتيما من أهله واسلم الي شاب مهما كان من رجاحة عقله فهو لايشعر في حنايا قلبه بعشر معشار مايشعر به اهل الطفل نحوه .

***

على ان المعلم أو المربي لن ينتزع الطفل من أهله قبل انقضاء زمن الطفولة حينما تكفل المرأة وليدها وتحضنه . وقد كان المتبع بين اهل الطائفة التي كتب روسو كتابه لها ان لا تعنى الامهات بالابناء بل يسلمنهم للمراضع وللخدم لتبقى السيدة في قصفها وترفها ورفاهها . فحمل روسو على هذه العادة حملة شديدة الجأت السيدات لارضاع اطفالهن . وقد غلون في ذلك حتى كن يرضعنهم في مقاصير مسارح التمثيل مابين فصل من الرواية وفصل آخر .

ولعل أبدع فصول كتاب التربية هو الفصل الاول الذي خص بملاحظة الطفولة . فقد عنى روسو فيه بنقد المتبع وبتقرير مايلزم عناية دقيقة . وظاهر سلفاً أن مايلزم هو ان يترك الطفل حراً كما أبدعه الخالق حراً . ولكن حكمتنا المدنية قضت مع كثير من الأسف أن « يولد الانسان عبداً وأن يموت عبداً . فهو يوم يولد يخاط في القماط ويوم يموت تقفل عليه أخشاب النعش وهو بين هذين اليومين مقيد بأنظمتنا وان ظهر بالمظهر الانساني »

وليس من شأن القماط وما اليه من الاربطة الا ان يعيق جرى الدم وان يضعف الطفل ويمنعه من النمو ويغير كيانه . وهذا كله يؤثر تأثيراً مباشراً على طبائع الطفل وأخلاقه . ولو أنه ترك وشأنه وترك له من حرية الجسم ما يشجعه على الحركة

لنما نمواً طبيعياً صحيحاً معقولا ولنمت غرائزه الطيبة مع نموجسمه ثم لما احتاج الي طبيب مدى حياته .

وروسو لا يحب الطب ويزعم أنه مظهر من مظاهر المدنية كالعلوم والفنون وكالفلسفة وأنه لذلك قد أفسد على الناس تصورهم للحياة شر افساد : « ولو أنك أردت الناس ذوى الشهامة فابحث عنهم في الاماكن التى لا يغشاها الاطباء وحيث يجهل الناس آثار الامراض فلا يفكرون في الموت . فقد جبل الانسان على احتمال الألم صابراً وعلى الموت مطمئنا . لكنهم الاطباء بأوامرهم والفلاسفة بقواعدهم والقسيسون بدعوتهم هم الذين يستذلون قلبه ويفسدون عليه مماته .

« فليكن تلميذي اذاً في غنى عن كل هؤلاء الناس والا رفضته . فما أريد ان يفسد على أحد عملى وانما اريد ان اربى تلميذي وحدي أولا يكون لي أي شأن في أمره . وقد نصح الحكيم Locke لوك بعد ما أمضي شطراً من عمره فى دراسة الطب ان لا يعطي الطفل دواء على سبيل الحيطة ولا لما قد يطرأ على صحته من انحراف خفيف »

وما كان اغنى الاطفال عن كل دواء لو أن امهاتهم عنين بهم العناية الواجبة ولم يتركنهم للخدم والمراضع يفسد الاولون ملكاتهم الخلقية كما تفسد الاخيرات صحتهم واستعدادهم الطبيعي .

وليت هاتيك الامهات حين فرارهن من أقدس واجب عليهن القين تبعته على من يكون في حلولهن محلهن الخطر الاقل، فاخترن المراضع وعنين من غذائهن ورياضتهن وحالهن بما تجب العناية به. بل هن يتركن كل ذلك للصدف ويتركن الطفل للظئر تفعل به ماتشاء. واني لامرأة تغذو غير وليدها ان تسيل في روحه البريئة عواطف الامومة الرقيقة مع لبنها المشتري. أم اني لامرأة ان تجد مع غير وليدها صبر الأم وحنانها. فاذا لاحظت كذلك انهانيك المراضع الاجيرات هن من طبقة ادخل الاهمال أو الظلم أو فساد النظام أو ماشئت فسمه الضغن والحفيظة الى نفسها ومنع عليها سبيل سمو النفس الذى يجب لكل من تربى طفلا تسنى لك ان تقدر مبلغ الفساد الذي تحاط به نفس الطفل من يوم يولد.

ولم يدر بخلد روسو حين وضع كتابه أنه سينتج من الأثر مايجعل طائفة من النبلاء تقلع عن عاداتها. فعنى عناية خاصة بما للظئر وعلبها. واستطرد في ذلك باسهاب واطالة. ولا عجب فانما لهذه الطائفة دون سواها كان يكتب. لكن هذه الطائفة انقرضت بانتشار الديموقراطية وأصبح نبلاء عصرنا هم أصحاب المال. وليس من شأننا ان ننصح لهم فما لهم خير ناصح مادام للمال الحكم والسلطان وما دام كل شيء بالمال يشترى حتى الذمم والضمائر.

على أن واجب الأم في التربية ليس أكبر من واجب الأب.

فهما شريكان في احتمال التبعة كما أنهما شريكان فى المتاع بالنتيجة . ولقد عبر روسو عن ذلك بحرارة و تألم دفع بعض النقاد الى القول بأنه ادكر جرمه القديم حين القى بأبنائه الخمس تباعا في ملجأ اللقطاء، ورأى نفسه في منحدر العمر وسط صحراء المدنية المجدبة في نظره وحيداً منفرداً كالشجرة الجرداء سقطت أوراقها وتهشمت فروعها و بقى الجذع قائما يلقى العاصفة بكل قوتها وكل قسوتها. قال : « كل أب يطعم أطفاله لا يقوم الا بثلث واجبه . ذلك بأنه مدين بالرجال لجنسه . وبالرجال الاجتماعيين للجماعة . وبالرعايا للحكومة . وكل أب يستطيع أداء هذا الدين ثم لا يفعل فهو أثيم . وهو أكبر اثماً اذا أداه منقوصاً . ومن لم يطق أداء واجب الابوة فحرام عليه ان يكون أبا . . . ولن يعفى أب من اطعام أطفاله وتربيتهم فقر او عمل أو جاه . وانى لنذير كل ذي فؤاد يهمل أيا من واجبات الأبوة المقدسة انه سيسكب على خطيئته طوال الدهر دموعا مرة ليس الى العزاء عنها سبيل »

***

والآن فما هى القواعد التى يجب ان تسير عليها الأم وان يتبعها الأب في معاملة أبنائه أول نشأتهم ؟ لعل القارىء يذكر ما أشرنا اليه عند تحليل الهلاوس من ضرورة اقناع الاطفال بأنهم اطفال وأنهم لذلك فى حاجة ماسة لكل من حولهم حتى من الخدم

والتابعين . ثم لعله يذكر أيضاً ما أشار اليه روسو فى روايته من ضرورة التزام الاطفال الطاعة لما يؤمرون به من غير مناقشة ولا شرح . وان تكون طاعتهم عن رغبة ورضى أكثر منها عن رهبة ومذلة . وان يتركوا احراراً في اتصالهم بالاشياء المحيطة بهم واستفسارهم اياها واستنتاجهم لانفسهم منها. وعدم التدخل في ذلك ولو قصد تعديله مهما بلغ في الخطأ على أمل ان يردهم استنتاجهم الشخصى عن خطأهم فيكون أكبر عظة وأبلغ في نفوسهم أثراً .

و يجب ان يتمتع الاطفال بهذه الحريه وان لايحرموا منها الا عند خشية الخطر أو الاذى العظيم وأن لايعوقها عائق سلبى ولا ايجابى . فكما لايصح أن يمنع الطفل عن الحركة أو عن الاقتراب من الاشياء وامتحانها بالحس ومعرفة مايحيط به كذلك لايجوز ان يدفع بالطفل في سبيل حركته لاكثر مما تمكنه... قواه أفرأيت هاتيك الامهات والمراضع يجهدن انفسهن ويجهدن الطفل بغية تعويده المشى آملات أن يسرع به ذلك الي القدرة عليه . هن انما يضعن عقبات في طريقه وكثيرا مايجلبن عليه التلف. وهن بلا شك يعقن تقدمه الى السير بنفسه . ولو انهن تركنه وشانه يعالج الحركة ويعتمد على الاشياء المحيطة به ويسعى بنفسه لتقليد الكبار في السير لكان في تقليده اكثر

اتقانا ولما عاق نمو اعضائه عائق ولعملت الطبيعة لخيره أكثر الف مرة مما تعمله امه أو ظئره التي لاتستطيع بمقا ومتهاالطبيعة أو أرهاقها اياها الا ان تفسد ماكان صالحا

وذلك هو الشأن أيضا في أمر التكلم . فان الحرص على أن يسرع الأولاد الي النطق يجنى عليهم ويؤخرهم اكثر مما يقدمهم فيه : فاذا هم بدأوا النطق ظلوا يستعملون العبارات السقيمة الي مابعد الخامسة أو السادسة . والعلة في ذلك عند روسو (أن أطفال المدن الذين يربون في غرفة ويبقون طول الوقت تحت جناح معلمتهم ليسوا في حاجة لا كثر من تأتأة بسيطة كى يفهمهم المحيطون بهم . فهم لايكادون يحركون شفاههم حتى يعنى من حولهم بالاستماع لهم . . اما في الريف فالامر مختلف . ذلك بأن الريفية ليست على مقربة من ولدها دائما . فهو مضطر أن يقول مايريد مفسرا و بصوت مرتفع حتى تستطيع سماعه). فالخير اذن ان يتركوا بادىء الامر ينقلون من الالفاظ ماسهل عليهم نقله ومتى حلاهم نقله ثم أن يعاملوا بعد ذلك معاملة عادية صرفة لامبالغة فيها لهم أو عليهم .

وهذا هو مايسميه روسو التربية السلبية التى يجب اتباعها مع الطفل في السنين الاولي من حياته . فلا يجوز ان يلقن شيئا ولا ان يلقي اليه بشيء مطلقا . بل هو يترك للاشياء

بعالجها وتعالجه . وهل خطر الحياة الا معالجة الاشياء والتغلب عليها . فاعتياد الطفل ذلك من نعومة أظفاره وامعانه فيه حسب تكوينه الذاتى ضمين بتربيـة ارادته، ضمين باستظهار القوي والملكات الخاصة الكمينة فيه . (فان لكل فرد يوم يولد — وهذا ماقاله روسو في هلويز الجديده — فضلا عن تركيب الجنس العام ميولا خاصه توجه نبوغه وتعين خلقه) وليس عمل التربية ان نغير هذه الميول أو نحورها فذلك ليس في مقدورنا وانما بالتربية نكونها ونكملها . ولما كانت الميول الاصلية طيبة بطبعها فان هينا ان نصل بها الي غاية حسنه مادمنا نوجهها توجيها حسنا . اما ان نحن أخذنا فى التربيـة بوسائل العسف واردنا ان نكره كل الافراد وبين ملكاتهم مابينها من عظيم الاختلاف على السير في طريق واحده والتكون على شكل واحد فلن يكون من وراء ذلك الا اضطراب ملكات الجميع اضطرابا يعدمها ويجنى على النبوغ وينزل بكل النفوس الى درك الحقارة. وذلك هو العكس مما يجب ان يكون

وقد غلا روسو عند تعريفه التربية السلبية غلوا كاد يجعلها مستحيلة التحقق فى الواقع فقال : يجب ان تكون التربية الاولى تربية سلبية وليست هذه التربية ان يعلم الطفل الفضيلة أو الحق ، ولكن ان يحمي قلبه من الرذيلة وعقله من

الباطل . ولو انك استطعت ان لاتصنع شيئا وان لاتدع شيئا يصنع حول تلميذك وكفاك انسرت به سليما معافي قويا حتى اذا به في الثانية عشرة من عمره ولا يكاد يميز اليد اليمنى من اليد اليسرى اذن لتفتحت عيون بصيرته للحق من أول دروسك ولما عاقت عادة أو عقيدة ملقنة عنايتك عن ان تبلغ غايتها . ثم انك لتراه بعد ذلك احكم الناس وتري ان بدأك تربيته بأن لاتصنع شيئا قط أدي الي معجزة من معجزات التربية » ..

فلما صودر كتابه ورد على المصادرة بخطابه البديع للمسيو بومون رئيس اساقفة باريس قال: «والتربية السلبية هي التربية التي ترمى الى كمال الاعضاء ـ وهى ادوات علمنا ـ قبل ان يصل الينا العلم عن طريقها . والتى تهيؤنا الى العرفان برياضة حواسنا . وليست التربية السلبية من تافة الاغراض، فانها تعد الطفل لتمثل كل مايصل به الى الحق حينما يكون في مقدوره عرفانه والي الجميل متي استطاع أن يحبه »

وقد دقق روسو فى وجوب تطبيق هذه التربية السلبية تطبيقا دقيقا سواء فيما يتعلق بفتح عيون الطفل للمعلومات وفيما يتعلق بتقويم خلقه . وانك لتجد في كتابه من هذا التدقيق الشيء الكثير : فلا تلق على تلميذك اى نوع من الدروس اللفظية اذ يجب ان يفيد دروسه من التجارب . ولا توقع عليه

أى عقوبة لانه لايدرك بعد الخطأ. ولا تطالبه أن يستميحك عفوا فهو لايتصور اهانتك . ومادام لايعرف أي مقياس خلقى لاعماله فهو لايستطيع ان يأتى سيئة خلقية تستحق الجزاء أو التوبيخ ..

على أن هذه التربية السلبية وغايتها كمال الاعضاء ورياضة الحس والوصول بالطفل قويا سليما الى سن التبصر والعقل تقتضى رياضته رياضة بدنية بمقدار عظيم . وهذا ماعنى به روسو ولم يهمله لحظة خلال كتابه . فهو في كل وقت يسير بالطفل في الاحراش والثلوج والحدائق ويصعد الجبال ويهبط به البطون ويعوده المشقات ولايفتأ يقدم لناظره من بدائع مناظر الطبيعة مايخلق عنده عشقها والولع بها ... وهو فى هذه وفي غيرها مما يقدمه لتاميذه من وسائل التربية انما يقدم للناشئة مثلا من تربيته هو . وهو فى اميل كما كان في الهلويز انما يقص حكاية نفسه ويروي وقائع حياته مثبتا ان خير ظروف الحياة الانسانية هى تلك الظروف التى مرهو بها والتى يأنف أكثر الناس ان يشهدوها فضلا عن قبول اجتيازها . ولكنها على الرغم من ذلك كونت بل خلقت جان جاك . وجان جاك صورة النبوغ وصورة الفضيلة . لذلك كانت بالرغم من كل الناس خير الظروف لتخريج خير الناس .

هذه الحركات الكثيرة وهذا الطواف والتجوال وهذه المشاهد التى تقع تحت نظر الطفل تقتضى منه احتكاكا بها قد يحتاج الي صدور امر المربى له باجتنابها أو بعدم مزاولتها كماقد تستدعى من الطفل حين عجزه عن استفسارها ان يستفسر عنها مربيه فبم تقضى التربية السلبية في الحالين؟

مانحسب القارىء في شك من الجواب. فان الطاعة المطلقة اساس من اسس التربية الاخلاقية. ولا يجوز للمربى ان يجعل امره للطفل موضع مناقشة وأخذ ورد لان الطفل لا يستطيع ان يقدر سلسلة الاسباب والنتائج التى تدور في نفس المربى ولا يستطيع اذا عرضت عليه ان يفهمها : فاذا هو عود الآخذ والرد فيما لا يفهم تعود الجدل السفسطائي غير المنتج وقدر لنفسه فوق مكانتها وحسب نفسه مساويا لمربيه فداخله الغرور وفسدت فيه خير الملكات . وليس يقصد بهذا ان لا يقدم المربى سببا للامر الذى يصدره . ولكنه يكون اكثر دقة اذا هو قدم السبب قبل ان يسأل عنه. فاذا سئل أكتفي بما قدم حتى يفهم الطفل أنه لا يطيع طاعة عمياء وأنه انما يخضع لضروات الطبيعة التى يخضع لها مربيه

وذلك هو الشأن فيما اذا استفسر عن شيء لم يفهمه . فمتى قدم له تفسير مايسأل عنه وجب ان يكون ذلك التفسير فوق

المناقشة حتى لايكون في شك من الاسباب التى تقدم له وحتي لايصل بكثرة الأخذ والرد الى التعود على السفسطة الكاذبة .

ولعلنا نري بعدذلك مبلغ مافي تعريف روسو للتربية السلبية من اغراق . فلن تقف طلعة الاطفال عند حد ولن يصل طفل الي الثانية عشرة ولا يميز بين يمنى يديه ويسراهما الا ان يكون ابله بالغافي البله . وقد رأينا أن الطفل الذي يريده روسو تلميذا له ليس بالابله ولا بالسخيف .

على ان روسو قد ابتعد عن تعريفه للتربية السلبية بمحض اختياره .فقد رأى أن يرتب الاشياء حول تلميذه وان يهيأ الظروف على طريقة تضمن وصول الطفل الي معلومات خاصة يستحيل عليه ان يصل اليها اذا ترك ونفسه.ورأى ذلك من أول ماعهد اليه بالطفل يربيه فقال :

« اذا عهد الى بسياسة طفل كالذي وصفت ـ أى طفل صحيح قوى غنى ـ اذن لقلت في نفسى : ان الطفل لايناضل الاشخاص ولكنه يناضل الاشياء.فهو سرعان مايقف بالتجربة عند احترام كل من كان اكبر منه سنا أو أكثر منه قوة . اما الاشياء فلا تستطيع ان تدفع عن نفسها . لذلك كانت الفكرة الأولي التى يجب عرضها عليه هي فكرة الملكية أكثر منها فكرة الحرية . ولتكوين هذه الفكرة عنده يجب ان يكون له شيء

في ملكه . وليس يجدى في ذلك ان تذكر له ملابسه وفرشه ولعبه . فهو وان تصرف في هذه الاشياء لايعرف كيف ولا لم كانت له. فاذا انت قلت له انها اعطيت اليه فانك لن تقدمه شيئا فان العطاء يقتضى الامتلاك . واذن فقد كان ثمت ملك سابق على ملكه . ونحن انما نريد ان نفسر له اساس الملك . كل ذلك فضلا عن أن العطاء والهبة انواع من الاتفاق، والطفل لم يفهم بعد معنى الاتفاق . وانى أرجو القراء ان يلاحظوا في هذا المثل وفي مائة الف من مثله كيف تملأ رؤوس الاطفال بالفاظ لامعنى لها عندهم ثم يقال بعد ذلك اننا احسنا تعليمهم خير احسان

« يجب ان نرجع اذن الى اصل الملك لنرى كيف ظهرت فكرته الاولى . فالطفل يكون لنفسه وهو يعيش فى الريف فكرة عن اعمال المزارع مما لايحتاج الا الي النظر والوقت، وله حظ منهما جميعا . ومن طبائع الناس في كل الاعمار وفي سنه هو بنوع خاص ان ينزعوا الى الاختراع والتقليد والانتاج والابانة عن مظاهر القوة والنشاط . فما يكاد طفلنا يري حرث الحديقة وبذرها وظهورها ونمو بناتها حتى يصبو الي القيام بمثل هذه الاعمال .

« وما كنت وفاقا للمبادىء السابق بيانها لاتعرض لبغيته.

بل على العكس من ذلك احبذها واشاركه في ذوقه واعمل معه لالمسرته ولكن لمسرة نفسي ، وذلك مايجب على الاقل ان يعتقده هو . ومن ثم اصبح صبيه في عمله . فاحرث له الارض في انتظار ان تقوى اذرعه ويضع هو يده عليها بان يغرس فيها حبات الفول . وليس من شك في ان هذا الملك اقدس وادعي للاحترام من تملك نونيس بلباولا مريكا الوسطى باسم ملك الاسبان حينما اقام علمه على شواطيء البحر الجنوبي

« ثم نجيء كل يوم نروى الفول ونراه ينمو ونحن أشد مايكون ابتهاجا ، وأزيد انا ذلك الابتهاج بقولي لهذلك ملكك. فاذا شرحت له معنى الملك جعلته يشعر بانه مانتج بانفاقه وقته وعمله وجهده ومجموع نفسه وان في تلك الارض شيئا من وجوده يستطيع ان يطالب به كل من سواه كما يستطيع ان ينزع يده من يد أي شخص يريد ان يمسك بها قهرا عنه

« ولقد جاء يوما الي عمله ومعه جردل الماء. لكن المنظر كان أليما. فقد اقتلعت كل شجيرات الفول وقلبت الارض ظهرا لبطن واصبح المكان ولا يمكن تمييزه . فبهت اميل وصاح : ماذا حل بكدي وعملي ومنتوج عنايتي وعرق جبيني ؟ من ذا الذي غصب ملكي واخذ فولي . وتحرك هذا القلب الشاب ان اسالت فيه أول مشاعر الظلم مرارتها الاليمه . فهمل دمعه وملأ الجو

توجعه وصياحه فشاركته فى المـه وغضبه وبحثت واستقصيت حتى علمت ان البستانى هو الذى اتى الفعلة واتيت به

« لكنا دخلنا في موضوع جـديد . فان البستـانى لما علم بالشكوي كان اكثر منا شكاية وارفع منا صوتا وقال : انتم اذن ياسادتى الذين افسدتم على عملى . لقد غرست في هذا المكان بطيخا ملطيا استودعت بذوره واعتبرتها كنزا ثمينا وانتظرت ان اقدم لكم منه عند نضجه مايسركم . وها انتم أتلفتم بطيخي بعـد مابدد نموه بغرسكم فولكم المنحوس ولم يبق الى الاسـتعاضة عن البطيخ سبيل . الا لقد الحقتم بى ضررا بالغا وحرمتم انفسكم من التلذذ بأكل البطيخ

جان جاك

« معذرة ايها المسكين روبير . فقد أودعت هنا كدك وعملك ثم ارتكبنا نحن خطيئة افساد عملك عليك . على اننا سنجلب اليك بذرا ملطيا آخر ثم لن نعمل في الارض قبل ان نعلم ماذا لم يكن أحد قد عمل فيها من قبل

روبير

« هونوا عليكم ايها السادة فلم يبق بعد أرض خاليه . وانى انما اعمل الآن فى الارض التى استصلحها أبى وسواي يعمل ماعمل . وكل هذه الاراضى التى ترون قد وضعت عليها الايدى

من زمن بعيد

اميل

« خبرني يامسيو روبير . كثيراً ماتتلف اذن بذور البطيخ

روبير

« عفوا ايها الصغير . فليس يغلب عندنا حضور سادة صغار طائشين مثلك، ولا يمس أحد حديقة جاره بل كل يحترم عمل غيره حتى يكون آمنا على عمل نفسه

اميل

« اما انا فلا حديقة لي

روبير

« ليس ذلك من شأني. واذا انت اتلفت حديقتي فلن اتركك بعد تتنزه فيها . فاني كما ترى لااريد ان يضيع عملي هباء .

جان جاك

« الا نستطيع ان نعرض على الطيب روبير اتفاقا . فليعط لصديقي الصغير ولي جنبا من الحديقة نزرعه على ان يكون له نصف الثمره

روبير

« انى اعطيه لكم بلا شرط . ولكن اذكروا انى احرث. فولكم اذا انتم تعرضتم لبطيخي»

فهذه الوسيلة التى يلجأ اليها روسو لادخال فكرة الملك الى نفس تلميذه ابعد مايكون عن تلك التربية السلبية التى عرفها. فاذا عرفت انها وسيلة تكررت في كتاب التربيه وان روسو كثيراً مارتب الاشخاص والاشياء والحوادث ليدخل الى نفس تلميذه فكرة معينه تبين لك انه شعر تمام الشعور باستحالة مرور الطفل بسنى الحياة الاولى من غير ان تترك في نفسه أثرا. فاراد ان يكيف هذا الاثر على مايريد .

وقد أخذ الكتاب ذلك على روسو : أخذوا عليه انه تعارض مع نفسه فترك التربية السلبية جانبا ولجأ الى وسيلة لا يضمن احد حسن أثرها كما لا يضمن أحد امكان تطبيقها مهما جاهد ليتبع تعاليم روسو . وهى فضلا عن هذا سهل أن يكشفها الطفل ، وفي ذلك من الخطر مافيه .

قال فيامن في عرض كلامه عن كتاب التربيه : « هنا يظهر وجه الخطأ الاكبر في طريقة المؤلف . ومرجع هذا الخطأ وجود الصناعة في تلك التربية الطبيعية وتوزيع الادوار ووضع الاشخاص في الامكنة اللائقة بهم . واذا كان روسو لا يسمح لتلميذه بمطالعة الكتب لانها كاذبة فما باله يرتب حوله كل هذه المناظر وهى في صناعتها اكثر من الكتب كذبا . افلا يعلم ان للاطفال سليقة حادة يكشفون بها عما يصنع لهم من صغائر

الحيل ويدركون بها مبلغ الجد معهم. فاذا كشفوا هذه الحيل فقل على التربية السلام . وروسو لا يفتأ يحاذى هذا الخطر في طريقته »

وما نشك في وجاهة هذا النقد فلن تكون تربية رجل الطبيعة على اساس من الصناعة والتزييف . ثم انك لن تستطيع ان تجعل الطفل في وسط الصناعة والتحيل ابدا وتضمن تأثر الطفل بهما من غير ان يصل الي كشفهما

على أن لروسو بعض العذر عن خطأه . فقد كان مشتغلا مدة كتابة اميل بالتفكير في اقامة قاعدة الخلق على أساس التلاؤم مع الاشياء المحيطة . لكنه وقد كان يرى ابعاد ما خلفته المدنية واوجده الترف من صناعة لم يكن في حل ان يحيط الطفل بمظاهر هذه الصناعة كما انه وقد كاد يسعي الى تكوين رجل الطبيعة وهو في غرفة يتعارض مع رجل ذلك العصر ـ كان في الخطأ ان يستعين بهذا الوسط الذي يطعن عليه وكان واجبا عليه ان يكتفى بالمحيطات الطبيعية الصرفه لتكوين غلامه .

والعجب أن يقرر روسو هذه النظريه ثم يبتعد في التطبيق عنها . والحق انه كما قال فيامن ينقض الطرائق المعروفة بأحسن مما يثبت به صلاحية طريقته فتراه يقول « ليكن الطفل تحت حكم الاشياء دون سواها . فلا تأمره بشيء ولا تعلمه

اكثر من انه ضعيف وانك قوى من غير ان تقص عليه أي درس كلامى . ولاتوقع عليه جزاء فهو لايفهم الجزاء مادام حسه الخلقى لم يتكون بعد . ولن يصح ان يقع الجزاء بالطفل كأنه جزاء وانما يجب ان يحل به كانه نتيجة طبيعية لعمله »ثم يقول « انما القمين ان تتم ارادته هو من لايحتاج لتمامها أن يضيف اذرع غيره الي اذرعه . . والرجل الصادق الحرية لايريد الا مايقدر عليه. ذلك مبدأى الاساسى وأريد تطبيقه على الطفولة »

افيكون هذا التطبيق بمثل ماتقدم من الحيلة ؟ اذن فأين البساطة الطبيعية واين حب الحقيقة واين الواقع الصحيح .

لكن روسو أحرص على مبدأ التربية السلبية عند تطبيقه في الميدان الاخلاقي . فهو لا يريد ان يلقي على الطفل شيئا باسم الواجب ولا أن يعلمه شيئا باسم الحق ولا أن يتدخل معه فى استنتاجه فضرر كل تدخل اكثر من نفعه. لكنه يرى واجبا أن يطيع الطفل ارادة أبيه أو مربيه وأن يخضع لها خضوعه لأى قوة من قوي الطبيعة القاهرة . والا: «فمتى استطاع الانسان اتيان مالا يسوغ له عمله دخل اليه حب اخفاء ذلك العمل . ومتى امكن لصالح أن يصل منا الى وعد وكلة أمكن لصالح اكبر منه أن يدفعنا لنقض كلمتنا وعدم البر بوعدنا، ومن ثم تدخل المفاسد الي النفس ،ولو اننا ابعدناها عن مظنة

السوء لبقيت في طهارتها ونقائها . ولا يكون ذلك الا بتركها حرة تعالج الحياة وتحتمل ثمرات علاجها من خير وشر لتعلم أن الضرورة الطبيعية هي وحدها التي تفيد حرية الفرد وانها لا تفيد حريته في سبيل الخير ولا الفضيلة ولا الحق »

فانت ترى ان المربى يترك للطفل من الحرية مايسمح له بتربية نفسه حسب الوسط المحيط به . وان روسو قد رأى لذلك وجوب ترتيب هذا الوسط بطريقة تضمن حسن النتيجة في تربية ناعم الظفر . ولكن الترك المطلق كما قدمنا محال . وهو ان أمكن في السنين الاولى الى الثالثه أو الى الرابعة من العمر فهو بعد ذلك غير ممكن . لذلك وجب ان يتقدم المعلم الى الطفل شيئا فشيئا لا بتعليمه الاشياء ولكن بالفاته لها واظهار الدهشة لعدم معرفته اياها بنفسه . على أن هذا الالفات يجب أن يكون للاشياء المحيطة بالطفل لا بالاشياء التي لا يقدرها الا توهما . فلا تقل له ان الارض مستديرة ولا أن قطرها يبلغ طوله وكذا وكذا من الكيلو مترات ولا أن المسافة بين الارض والشمس مداها كذا كيلو متر مما يشتت ذهنه ويغشى على بصيرته . بل جاهد لتجعله دائم الانتباه الي كل مايمسه مباشرة . وانك اذا لو اجده قديراً على التصور والتذكر وعلى التعقل أيضا . وهذا هو نظام الطبيعة »

والاشياء التي تمس تاميذ روسو هي المناظر الطبيعية والمزارع والقرى المنشأة بينها . وفي هذه المحيطات موضع لعلم واسع يلاحظه التاميذ بنفسه. فاختلاف سعة المزارع والمنازل والاماكن يمكن الطفل من تفهم المقاييس والاحجام ، ومختلف المساحات وما اليها تلهمه مبادىء الهندسه . والقرى المختلفة المشتتة التى يغشاها اثناء نزهه ورياضاته وما بينهامن بحيرات وغدران وجبال تفتح عينه للجغرافيا المحلية. واخلاق الناس وعاداتهم واقاصيصهم تدله على تاريخهم . وهو متى استطاع ان يفهم ذلك كله من الاشياء المحيطة به مباشرة تاق بطبعه الى فهم اشباهها و نظائرها فسهلت دلالته وهان ارشاده .

***

فاذا سار الطفل في سبيل التطور على هذا النحو حتى بلغ الثانية عشرة من عمره فانفتق ذهنه واتسع عرفانه اصبح قصره في دائرة التربية السلبية غير ممكن ووجب البدء في تعليمه. وذلك لأنه في هذه السن دونه في كل ادوار العمر يملك من القوة مايزيد على رغائبه وشهواته. فبينا يعجز الطفل ويستصرخ لضعف جهده .وبينا ينوء الرجل بحمل مطالبه ورغائبه ومطالب من يعول ورغائبهم،اذا الفتى الذى قارب استكمال قوته البدنية وفتح عين بصيرته للوجود لايزال قليل الرغائب لأن شهوته الجنسية

لما ينفجر ينبوعها ولان اطراد نموه يقاوم كل مايستوجب الضعف، ولأن ماأفاده من العلم بالمحيطات به بلغ حدا صار معه في حاجة لتبويبه وترتيبه وتعميمه الى ما يشابهه مما لايقع تحت حسه . وهو لايقدر على القيام بذلك بنفسه . والا لكان واجبا ان يبدأ كل فرد من أول الطريق الذي قطعته الانسانية. وهو من غير شك اعجز من ان يلم وحده بمجموع ما كدسه الماضي من معلومات توضحت وتفصلت بالزمان . فاذا وقف في منتصف الطريق عجز عن ملابسة الجمعية ولم يفده عجزه شيئا . ومن الواضح ان تربية هذه نتيجتها هي تربية خائبه .

ولعل القاريء يذكر ماوجه لروسو من قارص النقد حين نشر خطابه عن العلوم والفنون داعيا للرجعة الي الطبيعة .فقد طعن عليه بورد وستانسلاس وغيرهما يومئذ بانه يقف في طريق التقدم ويدعوا الي الخراب . واضطر هو فعدل عن فكرته المتطرفة الي وجوب استبقاء المكاتب والمتاحف من غير أن تكون سببا للترف ولما يجره من الفساد . وما كان روسو ليقع من جديد في خطأه القديم . فجعل يوضح لأهل عصره السبيل لمحو الفساد مع الاستمرار في طريق التقدم العزيز على العلماء والكتاب جميعا .

ووسيلة ذلك في تربية تلميذك الذى تعدى الثانية عشرة

من عمره ان تلهمه الحقائق المحسوسة من غير ان تعلمه اياها. وذلك « بأن تنبه يقظته الي مظاهر الطبيعة حتى تثير عنده الشغف بها، على انك اذا شئت أن يبقى شغفه فلا تقدم له ما يكفيه ويقنعه بل قرب منه المسائل ودع حلها له. فلا يجوز ان يعلم شيئا لانك قلته له وانما يجب ان يعلمه لانه فهمه من تلقاء نفسه. واذن فهو لا يتعلم العلم ولكنه يبدعه » . . . على ان من الواجب ارشاده بعض الشيء، وبعض الشيء، فقط وبمقدار لا يشعر هو به. فأن اخطأ فدعه يخطيء ولا تسارع الى اصلاح خطأه بل فانتظر مطمئنا حتى يتاح له ان يصحح ما اخطأ فيه او فرتب له فرصة غير محسوسة تجعله يحس بخطأه. ولو انه لم يخطأ ابدا لما أتقن تعلما » وهنا يرتب روسو من صور الطبيعة ومظاهرها ومن الصور المسرحية التي مر بك مثلها فى قصة البستاني ما يبين به طريقة الالهام واثارة الشغف واستبقائه.

الي هذه السن لم يقرأ اميل كتابا الا كتاب الطبيعة « الذى لا يكذب ابداً »: وهو في هذا يختلف عن روسو الذى كان ولا تزال في السادسة من عمره يقضى الليل كله يقرأ هو وابوه روايات كانت امه قد خلفتها قبل وفاتها. الا ان روسو كان شديد الرغبة عن الكتب لانه كان يعتقدها مثالا للبيئة الاجتماعية كافيا ليفسد على الاستاذ كل تعاليمه وبخاصة اذا قرأها الطفل ولما تتكون

عنده ملكة الحكم ولما يفد من المعارف مايسمح له بتقدير مافيها من صحيح وباطل. لكنه اذا بلغ الثانية أو الثالثة عشرة من عمره كان في سن تسمح له بالتدبر بعض الشيء ولذا وجب التسامح معه في قراءة بعض الكتب على شريطة ان تكون فى متناول علمه وان يستطيع الحكم عليها حكما صحيحا

فأما الكتب التى تتعدي مقدرته في الحكم فضارة لانها تفسد نظام تربيته وتخضعه لافكار لم يحصلها هو بنفسه وتجعله لذلك العوبة في يد سواه وتدفع به الي التقليد والي مجاراة الوسط ، من غير تفكير في تقدير مايجارى غيره فيه اعتمادا على ان هذا الغير اكثر منه مقدرة واوفي علما. والطفل اذا اتجه الى هذه الناحية فقد ذاتيته وضاع كل مجهود انفق في تكوينه وتربيته وصار مغرسا صالحا لكل مفاسد الاجتماع

وخير الكتب التى يقدر عليها الاطفال في هذه السن حكايات لافونتين. وليس من شك في ان هذه الاقاصيص التى تنسب الى ايزوب اليونانى والتى نقلها لافونتين الى الفرنسية هي ببساطتها وبسوقها على لسان الحيوانات وبالافكار والحكم التى تحتويها خير مايصلح لرياضة عقل الطفل لجاذبيتها ولطرافتها ولجمالها . وطفل روسو ومن كان على شاكلته يستطيعون لاشك حسن تقدرها والحكم عليها .

لكن اقاصيص لافونتين لاتكفي وحدها غذاء انه لنفس الطفل المحتاجة الى الغذاء العقلي ولما كان حتما ان يكون الطفل لنفسه فكرة عن العالم وعن الانسانية بعد ما كون فكرة عن ركن العالم المحيط به وعن اصول وفروع اصحابه ومعارفه فقد اباح له روسو مطالعة كتب التاريخ مفضلا منها ما كان قاصرا على تراجم الافراد. وحكمة ذلك ان تواريخ الامم لاتعنى من فترات حياة الامم الا باوقات الحروب والثورات والمذابح وما اليها من ظاهرات تدهور الانسانية. فان الشعوب السعيدة لاتاريخ لها. والرجوع الى هذه التواريخ المولعة بالبحث عن المجد والاشادة باسم الذين وصلوا الى ذروته مفسد للروح لما يدفعه اليها من حب الدسيسة والخديعة والكذب والنفاق.

وأنا لنؤمن بهذه الملاحظة ونعتقد ان العصور التاريخية التي يعلو فيها نجم السياسيين هي اتعس عصور الانسانيه واحطها. ولو انك رجعت الى ابدع ساعة في تاريخ فرنسا — ساعة الثورة الفرنساوية — ووقفت عندها وقفة الحكيم وحللت ماكان فيها اذن لما رأيت الا كلمات جوفاء والا مظالم مكدسة بعضها فوق بعض والاالسياسيين ذوي المطامع الذاتية يدوسون باسم ارق المباديء واسماها رقاب البشر يظلمون باسم العدل ويقتلون باسم السلام العام وينهبون باسم ثروة الدولة ويرتكبون كل

فاحشة ومنكر باسم الفضيلة الطاهرة ويهيئون الأمة الثائرة تطلب الحرية لقبول ظلم نابليون وطغيانه :

بل مالنا نرجع للثورة وهذه حرب العالم الكبرى ولما يكد ينتهي العالم منها . ارأيت مابلغته الأمم خلالها من جلال وما باهت به بعدها من فخار ومجد. أسمعت كلمة امبراطور الالمان أول الحرب (ويل للمغلوب) وهي كلمة لا نظير لها الا في نذر الآلهة . أسمعت خطب لويد جورج و كلمنسو وما تستفز به حمية الشعوب وتستدر به عبرات الانسانية . وهل تذكر خطب مابعد الهدنة مترددة بين الوعد والوعيد وصوت البشير وصيحة النذير . ان كنت تذكر كل هذا فاجلس ساعة الى نفسك واحتلب عصارته جميعاً بعد ان تمره بمصفاة عقلك ثم قل لي هل ترى فيه من خير يعدل مافي سطر من كتب روسو اوقصيدة من روايات شكسبير أو من كوميديا دانت الالهية أومن تواليف جيت وشلر . ولا غرابة في ذلك . فالانسانية انما تنتج طيب آثارها وهي في حال من طمأنينة البال وسكينة النفس وفي شيء من الرغد ونعمة العيش . فاذا هي استطير عقلها طاش صوابها وتحكمت فيها شهواتها الحيوانية فاصبحت الخطب زئيرا وصهيلا والتفكيرات طفرات واندفاعات والعواطف سلائق وحشية والرحمات رياء و نفاقا . وما كان لاحد أن يطالب الانسانية بغير هذا . فان للوسط على النتيجة اكبر الاثر .

فاذا تلبد الجو بدخان البارود فاحتجبت الشمس واختفى القمر وتسمم النسيم وقلبت الارض عاليها سافلها وغطي الجدب اكثر بقاعها ربض الانسان وسط ذلك كله وجلا مضطربا متحفزا للوثبة كله عيون ترى مواضع الخطر وآذان تسمع هزات النسيم وكان على هذه الحال ولا فرق بينه وبين النمر أو الثعلب احيط به وسط ادغاله واحراشه

كتب التاريخ التى تقص خبر هذه الفترات من حياة الانسانية ليست اذن من طيبات الكتب التى تقدم للناشئة حين تربيتها . لكن الناشئة ليست في غنى عن كتب التاريخ . لذلك فضل روسو ان تقدم اليها كتب التراجم . فان المؤرخ يعنى بتتبع من يترجمه في كل فترة حتى في الفترات التى يود المترجم الخفية فيها والاستتار . وهو لا يترك له فرصة ولا صورة الا عرضها امام عين الناظر الناقد . وهو اشد عناية بتعريف الناس اياه حينما يظن هو أنه اختفى عن كل عين .

لعل القارىء يذكر ولع روسو بكتاب بلوتارك عن حياة العظماء . وهو هذا الولع الذى أدى به ليمدح فكرة قراءة التراجم اكبر المدح ويشايع الكاتب الفرنسى الكبير مونتنى في محبته اياه وفي التشجيع على قراءته .

على أن كتب التاريخ العام وكتب التراجم لا تقتصر على ذكر

الوقائع ووصف حالات النفس . بل كثيرما يواجهها حكم المؤلف على الحوادث وجهة خاصة . وما كان لمؤرخ مهما بلغ من حياده ومهما نظر الي الحوادث بعين مطمئنة لاتعرف الفزع ولا النشوة ان يمحو ذاتيته من كتابته : فان للوقائع التى يسردها وللرجال الذين لعبوا الادوار المهمة فيها ولظروف الاجتماع التى احاطت بها ولتصاريف الاقدار التى وجهتها منطقا خاصا . ولم يبلغ العلم الاجتماعي بعد من الدقة مبلغا يجعلنا نؤمن بالقوانين التى تصرف الحوادث التاريخية والاجتماعية ايماننا بقانون الجاذبية . فكل مؤرخ وكل مترجم له رأيه في منطق الحوادث وله حكمه على كل رجل من رجال التاريخ . لذلك كان الناشيء في تعرضه لهذه الكتب عرضة لأن يتأثر بحكم غيره . وهو وان بلغ سنا تسمح له بحسن التقدير فانه لايزال في درجة من معرفة العالم أدنى من درجة هؤلاء المؤرخين والمترجمين . وتأثره برأيهم هو مايخشاه روسو وان كان لايجد من الالتجاء اليهم مفرا

يلتجيء الطفل الي كتب التاريخ والتراجم ليعرف سيرة الانسانية والسبل التي سلكها الناس فيها من قبل وكيف قدروا شأنها واثروا فيها وتأثروا بحوادثها... ذلك كل شأنه من قراءته . ليس يعنى بتمحيص الحوادث ليضع يوما مؤلفا في التاريخ ولا يفحص صور الامم لينشيء نظريات في الاجتماع . لانه في الحالين

يكون معينا على انتشار العلوم والفنون وانتشارهما فساد وشر عند روسو . وليس يعنى من قراءته بما قد تجره من الفائدة المادية لأنه على مارأى القاريء بادىء الامر شاب غنى من اسرة عريقة في الارستقراطية غير محتاج ليجعل من دراسته صناعة ترد عليه من وسائل العيش ماترده الفأس على الفلاح والكير على الحداد والمنشار على النجار. هذه الدراسة أو بالاحرى هذا الاطلاع على بعض الكتب الخاصة وتفهمها والحكم عليها انما يراد به المزيد من حسن تكوينه ليصبح اكثر مقدرة على ماأعدته له ارستقراطيته من التربع على عرش الحياة بما يجب له من العظمة المحسنة ومن التحكم المحبوب

لكن الغنى عرض والارستقراطية مظهر والتحكم المحبوب ليس مضمون البقاء واميل لم يصل من قراءآته ليفيد عرض الحياة . لذلك رأى روسو ان يعلمه صناعة يدوية حتى اذا قعد به الزمن كانت له معينا على الزمن . ثم ان ماوقر في نفس اميل من ان السعى اساس التملك وان البطالة ليس لها جنى الا العلل والامراض وان رياضة البدن امر جم الفائدة كل ذلك يجعله يرى في الصناعة اليدوية مايسلى به وقته وما يزيد به في رياضاته ومايشعره المساواة مع الفقراء في كدهم كما تشعره تربيته الراقية المساواة مع الارستقراطيين في سرائهم وفي حكمهم غيرهم

***

الى هنا انتهى روسو من تربية تلميذه الاولي فانتهت الاجزاء الثلاثة من كتابه الضخم . وهنا وقف تلميذه عند حدود مابين الطفولة والرجولة حين يبدأ الفرق الصحيح بين جنسى الرجل والمرأة، فيخرج الاول من طفولته وتتغير فيه كل مظاهرها من نعومة في الصوت وخلو في الفؤاد وابهام في النظرة وخضوع واستسلام ويبقى الثانى مستمرا في طفولته بكل مظاهرها الى ختام حياته .

هذه اللحظة هى ادق لحظات حياة الرجل. فنحن (نولد مرتين . أولاهما لنوجد والاخري لنعيش . اولاهما للنوع والاخرى للجنس) فاذا اتفتحت في الشاب ينابيع حياة الجنس كان هذا مولده الثانى . وليس هذا المولد اقل خطورة من الاول. فانك ترى الشاب في ابان هذا التطور وقد تغير طبعه وكثرت اندفاعاته ولج به اضطراب النفس وصم عن سماع كل صوت يناديه للسكينة واصبح وكأنه أسد في نفرته لايعرف مرشدا ولا يقبل لغيره عليه حكما . فلا عجب ان يكون واجب المربى فى هذا الدور من أدوار الحياة مضاعفا وان يكون كل ماقام به من قبل في سبيل التربية قليلا الى جانب ماتقتضيه هذه اللحظة الحاسمة.

عود روسو تلميذه الطاعة في كل أدوار حياته . وحبب اليه

رياضة البدن ورياضة النفس . وعلمه حرفة يدوية يقتل بها الوقت ويستعين بهـا اذا اقتضت الحاجة . وقدم اليه طيب الكتب القليلة ليقرأها ويحكم عليها . ولم يترك لحظة من وقته الا شغلها بما يريد، على ان لا يحس التلميذ بهذا التحكم . بل على ان يعتقد انه حر مطلق الحرية يصرف وقتـه كما يشاء ويعمـل ما يريد . فكان طبيعيا اذن ان لا يفكر التلميذ فى شيء من صلات الجنسين قبل هـذا المولد الثانى . وما دمنا قد عودناه الحكم على الاشياء وامعان النظر فيها فان هذه الساعة الخطيرة ستمر بهذا التلميذ من غير كبير خطر . لأن تحكم الاميال الجنسية في الشبان ودفعها بهم فى سبيل السبل انما سببه كثرة تفكيرهم فيها . اما ان هم وجدوا عنها منصرفا وشغفوا باعمال وتفكيرات أخرى فان ساعات العماية لا تمر بهم ابدا . لان اتجاهات الذهن اكبر من كل شيء أثرا على حركات الجسم واندفاعاته . وما دامت هذه الاتجاهات عند تلميذ روسو بعيدة عن صلة ما بين الرجل والمرأة فان خطر ساعة بدأ الشباب يكون غير مخشى العاقبة .

وانا لنشارك روسو في ملاحظته هذه عن ايمان وعلم ونقطع واياه بأن مفاسد الشباب في المدن انما سببها هذا التبرج النسائى وهذه الصور المخجلة التى تعرض لا على مسارح التمثيـل فحسب ولـكن في السـبل والطرقات وفي حوانيت الباعة وفى الزيارات

العائلية وفي الاحاديث العامة والخاصة . دعنا الى جانب هذا من دورا لدعارة ومباآت اللهو ومن تلك الاماكن العامة يمرح فيها افراد من كل جنس لاهم لهم الا اثارة كوامن الشهوات . فكيف ترجو مع ذلك ان تمر بالشاب ساعة جنون الشباب فلا يندفع وراء الرغائب الجنسية الثائرة في نفسه . بل كيف ترجو ان لايفكر الاطفال قبل العاشرة بل والثامنة من عمرهم فى صلات الجنسين. وكيف تراهم يقمعون في نفوسهم طلعة الطفولة التى تدعوهم للسؤال عن كل ماتقع عليه عيونهم . فاذا هم فهموا هذه المعانى على النحو المشوق الذى تقدم به في المدن تواردت صورها الى اذهانهم فهاجت نفوسهم فعجلت الساعة الخطيرة ولما يكتمل لهم من توازن قوى الجسم والعقل مايضمن سلامتهم من التورط في الزلة والارتكاس في حمأة الرغبة الجنسية والتأثر بكل مايجيء ذلك نه من فساد في الطبع وضعف في النفس وانحطاط فى جميع القوى

اما في الارياف البريئة من كل هذه المفاسد فسن بلوغ الفتيان والفتيات متأخرة عما هى عليه في المدن (وانه ليدهشك اذ ترى في قرى سويسرا الجبلية شبانا في قوة الرجال ولا يزال صوتهم حادا وذقنهم ملساء، وفتيات كاملات النكوين لاتؤاتيهن عادات النساء . وهذا الفرق الواضح بين هؤلاء وأهل المدن انما سببه انهم في بساطة اخلاقهم يحتفظون بخيالهم هادئا مطمئنا فيتأخر

ختمار دمهم و تظل طباعهم اقل حدة) وما يصدق على قرى سويسرا يصدق على كل مكان تسود فيه البساطة وطمانينة الخيال .

فاذا ظل التلميذ مشتغلا برياضاته ولعبه وقراءآته وحرفته عن التساؤل عن صلات الجنسين وما يرتبط بها فواجب ان لا ينبه الى شيء منها حتى يبقى في سكينته وحتى تمر به العاصفه وهو قوى عليها يلقاها بلا خوف ولا وجل

لكنك لن تضمن ذلك . فللأطفال مسائل يلقونها في هذا الباب عن براءة وطهارة قلب . فكيف نجيبهم عنها . اترانا نكذب ام نلزمهم السكوت ام نصارحهم بحقيقة الامر واضحة جليه

اما الكذب فبغيض الى نفس روسو وهو لا يقره بحال . واما الزام السكوت فذلك ما يميل اليه . وما دام الطفل قد اعتاد الخضوع لهذا الامر في مواضع اخرى من تربيته فلن يراه في هذا الموضع غريبا ولن يثير عنده أى دهشة أو طلعة . على ان الاقل من الامهات من تكتفى بالزام طفلها السكوت . بل هن على الاغلب يفاجئنهم بعبارات التشويق والترغيب كأن يقلن لهم : ستعلمون ذلك فيما بعد . أو ذلك سر المتزوجين . فيبقى الطفل تتقلب طلعته على اشواك الحيرة يود ان يعرف اليوم ماسوف يعلمه من بعد ويريد ان يقف على سر المتزوجين . فاذا لم يجد من امه أو مربيه من يدله عليه لجأ الى الاطفال

امثاله. وهو لن يعدم ان يجد من بينهم طائفة فاسدة الخلق تزين له من امر هذه الاسرار التى يأبى الكبار ان يبوحوا بها مايجعل الطفل يد من الفكرة فيما يقوله امثاله مزينا اياه بصور خاصة من خياله معتبراً فيه طلسما ضن ابواه بفتح كنوزه أمامه. ولو انهما كلماه في لامر بصراحة و ببساطة كما يكلمانه في كل ماسواه فقالت له امه حينما سألها كيف تصنع الاطفال ان النساء يبلنهم متجشمات في ذلك من الآلام مايذهب احيانا بحياتهن وقالت له ذلك على نحو ماتقول له أى شيء آخر اذن لرأيت طلعته وقد اطمأنت ثم لرأيته وقد انصرف عن التفكير في أمر هذا مبلغه من السخف أو ان شئت فقل من القذارة والنكر

لكن العرف يأبى ذلك :والسبب عند فاجيه راجع الى تفسير الاشياء الطبيعية بشيء من الحدس الديني (فان الطفل لايذكر شيئا مما اصابه ولا يذكر ما كان حتى الرابعة من عمره. لذلك خيل لآبائنا ان الالهة ارادوا ان يبقى الانسان زمنا طويلا جاهلا كيف وجد في هذا العالم والقوا على مسألة الميلاد حجابا مقدسا ظنوا رفعه امراً غير جائز) لكن الحجاب المقدس الذي يأبى الآباء رفعه يرتفع من امام عين الطفل بلا حاجة لتداخل ابويه. فان زملاء المدرسة وخلان الطرقات وحثالة السفلة اجرؤ من الاباء واسرع الى التجديف في حق هذا السر القدسى

بطريقة دنيئة منكرة سيئة الاثر والفعل فى نفس الطفل البريء ولو ان الآباء ازاحوا الحجاب على النحو الذي ذكره روسو من البساطة وعدم العناية به اكثر من أي مما سواه لانصرف الطفل عن العناية بالبحث فيه أو بسماع أقوال زملائه عنه وكان شأنه شأن من صرفته اعماله ورياضاته وما الي ذلك من المشاغل عن المسألة فى هذا الامر، فبلغ الحلم متوازن القوى والرغائب غير معنى بالمسألة الجنسية اكثر من عنايته بسواها مستعد للبقاء في طهر العفاف حتى زواجه . وما اكثر ماتكسب الفضيلة بذلك (فان الطفل الحسن المولد الذي يحتفظ الى العشرين بطهارته هو فى هذه السن اكرم الرجال واحسنهم وارقهم) ذلك مايقوله روسو عن علم وتجربة لايخشى معهما كذابا . وانما يجهل سواه من فلاسفة العصر هذا الامر لانهم تربوا وشبوا في احضان الفساد المدرسى .

* * *

الى ذلك الوقت ،الي السادسة عشرة من سن اميل لم يلقن اميل شيئا من قواعد الخلق ولا عنى استاذه بتأديبه ، بل تركه للطبيعة يتأثر بمظاهرها وبفعل تلك المظاهر فيه ،وليس من شأن الطفل قبل هذه السن ان يفكر في غير نفسه ولاان يعنى بعلاقته بمن سواه ولا ان يقدر للعواطف المختلفة . وانما تسير به في

مضطرب الوجـود فطرة الاحتفاظ بالحياة في احسن الظروف الممكنة للحياة . وهذه القطرة هي أقوى اسس الاثرة وهى التى تجعل الموجود لا يعنى من الوجود الا بذاته ولو ترتب على عنايته بذاته فناء الوجود .

وما يشك قاريء في ان هذا الترك هال معيب من جانب الاستاذ لتلميذه . فانما الغرض من التربية تهذيب هـذه الاثرة الاشعبية . فاذا ترك الطفل وشأنه نمت فيـه أثرته فاصبح من المتعذر التغلب عليها كما احاط بها من مستلزماتها الغرور والكبرياء والجشع وحب الظلم وما تدعو هذه الصفات اليه من الـكذب وباطل الادعاء ومن النفاق وتمليق الاقوياء ومن القسوة والفتك بالضعفاء . ويومئذ يذهب كل مجهود لاستئصال هذه الصفات أو للتغلب عليها هباء . ويومئذ يكون القسم الاهم من التربية بل التربية كلها قد ذهبت ضياعا .

هذا اعتراض قوى يوجه الي روسو في تركه فتاه بلا تأديب حتى هذه السن المتقدمة . لـكن لروسو عليه رد ليس اقل منه قوة . فهو يقول اق تلميذي ليس كتلاميذكم (انظر اليه في هذه السن ترى انه لم يشعر بشيء ولم يكذب في شيء . فهـو لم يقل لاحد قبل أن يعرف معنى الحب — انني احبك — هو لم يعـود تكلف مظهر خاص حين الدخول في غرفة ابيه أو أمه أو معلمه المريض

وهو لم يعلم فن التظاهر بالحزن حين لاحزن عنده . وهو لم يتظاهر بالبكاء لموت أحد لانه لم يعرف بعد ماهو الموت . وانما تترجم سكينة طباعه عن سكينة قلبه . وهو لايهتم لأحد لانه لايعنى بشيء الا بنفسه شأن الاطفال جميعا » وقد حفظ ذلك عليه طيب طبعه كما أتاح له أن عاش عيش الطبيعة فلم يدرج أول مادرج الى أماكن اللهو والي المجتمعات البراقه الكاذبة البريق والى كل مصنوع متكلف ولو انه شب كما شب غيره واعتاد التكلم بمالا يعرف وبمالا يحس به لكان اساس تربيته فاسداً ولكنت بتربيتك له على هذا النحو انما تكيف رجل الجمعية الفاسد الدعى على حساب ابن الطبيعة الصريح الصحيح . وهذا لعمرك هو الشر المستطير .

لما يقف أميل اذن بعد على شيء من قواعد الخلق فكيف السبيل لادخالها الي نفسه .

قد يجب علينا قبل عرض هذه المسألة على طريقة روسو ان نسأل عن رأيه هو في قواعد الخلق . وقد يجب علينا قبل معرفة رأى روسو أن نسأل عما هي قواعد الخلق لذاتها . وانا لا ندعى في هذا الموضع امكان مناقشة المسألة الاخلاقية التى يستغرق كل وجه من وجوهها مطول التصنيف ولكنا نعرض منها لما نرى ضرورة التعرض له لفهم رأي روسو ونعرض له على طريق

الاشارة البسيطة لأعلى طريقة البحث والتمحيص :

لو انك فرضت وجودا لحي بن يقظان أو لروبنصن كروزو لما استطعت ان تتصور لهما من قواعد الخلق الا بمقدار ما يستطيعان معه ملائمة الوسط الذي يعيش كل منهما فيه . فاذا كان احدهما محاطا بكواسر الوحش وبطقس متقلب كثير العدوان وبأرض قليلة الخصب لم يكن بد من تصور هذا الشخص قويا نشطا ذا ذكاء وحيلة وابداع حتى يدفع بقوته وحيلته عاديات الحيوان عليه . وحتى يصل بنشاطه وابداعه الى استغلال الارض على قلة خصبها . وحتى يستعين بابداعه وذكائه على اختراع ما يتقى به تقلب الطقس ؛ فاذا وصل الي ذلك كله فاتقي العدوان وحصل المعاش كان ما يأتيه بعد ذلك من تفكير أو تصور أو عمل ولا حكم لقاعدة من من قواعد الاخلاق عليه. واذا كان الآخر مقيما في جو خصب غنى بخيراته معتدل الطقس قليل العوادي من حيوان وطير كان في غنى عن القوة وعن الحيلة وعن الابداع وكان له غير ملوم ان يتمتع من جنته بكل ما يصوره له خياله من انواع المتاع ثم لا يكون لشيء اسمه قواعد الخلق حكم عليه .

لكن الانسان المنفرد لم يكن ولن يكون . فاذا وجد حي وكروزو معا وكانا متساويين قوة وحيلة وذكاء اقتسم كل نعم الحياة مع صاحبه من غير عدوان عليه لان عدوانهما الاول اثبت

لهما ان ليس لاى منهما من وراء العدوان فائدة وان العدوان ضار بهما جميعا . كذلك تعاون كل مع صاحبه لدفع العوادى.. فاذا حل بأحدهما الضعف جاهد صاحبه ليفيد على حسابه . فاذا تفاوتا في القوة الي حد اذلال احدهما للآخر لم يكن للذليل بد من احدامرين. اما الخضوع رجاء الحصول على مايقيم أوده مع بعض المتاع الذى يفيض عن صاحبه . واما الاحتماء في الزهد واحتمال الحرمان من كل ماقد تجود به الحياة المحيطة من نعيم أو مسرة. وهذا الاحتماء من الظلم في كنف الحرمان هو عندنا اساس التقشف والزهادة التى اصبحت فيما بعد مذهبا اخلاقيا ذا قوام وشعب وقواعد .

ولا عجب ان يصبح الزهد مذهبا، فقدكان التفاوت وعدم المساواة في عصور ماقبل التاريخ . وكان الظلم ولايزال قاعدة التعامل بين الافراد والامم. والى اليوم اخفقت كل المجهودات الكريمة التى انفقت لمنعه أو لتخفيف وقعه . وكثيراً ماستفاد الظلم على حساب هذه المجهودات وخرج بفضلها ظافراً من كل الحروب التى اعلنها ومن الحروب القليلة التى اعلنت عليه .

غير ان التقشف لايتفق مع طبيعة الحياة . وليس متقشف الاصادف عن الحياة سواء طمع بعدها في الخلود أو هو لوى عنها وجهه تقززا منها واستهزاءبها أوخضوعا لضرورتها المتحكمة،

والتخلى عن الحياة اثناء الحياة تناقض لا تطيقه النفوس في معروف الحياة، لذلك كان مذهب الرواق على بديع جماله خيالا شعريا . أما ماهو واقع تحت نظرنا فيدلنا على ان الحياة غاية الحياة وان ماتفسر به صورها بعد ذلك انما هو حدس لا دليل عليه . ولتحقيق هذا الواقع يجب ان تكون قاعدة الخلق عند رجل الجماعة كقاعدة الخلق التى فرضناها لحي بن يقظان . ملائمة الوسط الذي يعيش الفرد فيه على طريقة تتفق مع فطرة احتفاظ الفرد بحياته ومعاونته على احتفاظ الجنس ببقائه وبتطوره وبملاءمته للوسط الذى يعيش فيه .

وهذه القاعدة اكثر تمشيا مع مذهب ابيقور على تعدد صوره . وهي مايريده روسو قاعدة لآدابه مع شيء من الطرافة خاص به ومميز له عمن سواه .

وقد يلاحظ هنا ان هذه القاعدة هي القاعدة العامة لكل انواع الخلائق، فلن يحتمل الحياة موجود لا يتلاءم مع ظروف الحياة المحيطة به، الا ترى الى السبع والنمر على قوتهما وجرأتهما كيف يهجران الاماكن التى لا تتفق طباعهما مع طبيعة العيش فيها . فما الفارق بين الانسان وغيره اذن ؟

الفارق ان طبع الحيوان اصلب واقسى من طبع الانسان . الانسان قدير على ان يتشكل بشكل الظرف الذى هو فيه . وهو قدير

على ذلك عن ادراك وشعور . اما الحيوان فأقل مرونة وهو لذلك اسرع الي الانقراض عند تغير الوسط. ومرونة الانسان وشعوره بهذه المرونة هما اساس الخلق المكسوب القائم الى جانب الطبع والسليقة عنده .

وقد كان من تطور حياة الانسان ان تزايد التفاوت بين جماعاته وبين افراد كل جماعة فاقتضى ذلك نضالا دائما تمت الغلبة فيه للظلم اكثر الاحيان، وباء المظلومون بخيبتهم يتعثرون في اذيالها ويشعر كل منهم بقارص ألمها، فتكون عندهم تبادل العطف بسبب الألم المتبادل ، وعرف كل منهم أن أخاه البائس يستحق من الاشفاق مايشعر هو في نفسه بأنه مستحق له، ثم حفزهم المهم لمعاودة الكرة وللثورة من جديد في وجه الظلم ، فاحتاجوا للقيام بثورتهم الي التعاون والتضامن فيما بينهم والي الصداقة في القول والاخلاص في التضحية ، لكنهم لم يظفروا من ثورتهم الجديدة الا بما فازوا من نضالهم القديم، فعادوا ادراجهم واجمين، ففكر جماعة منهم في القناعة بحظهم مكتفين بالنظر لمن دونهم وبالتألم لمن كانوا اكثر منهم مصابا . اما الآخرون فنظروا الى من غزوهم نظرة الحقد ثم فكروا في انزال غضبهم بأمثالهم الضعفاء الذين عجزوا بالامس معهم عن مواجهة الاقوياء . وكذلك تجدد الظلم والعدوان وكذلك نشأت العواطف التي رأي القارئ ،

فأقامها الناس قواعد لخلقهم في النضال اليومى الذي لايقل عن ذلك النضال الآخر بشاعة وقسوة والذى لايمتاز عنه الا بأن سنانه ادق واحكم فوخزاتها أقوى وأقتل ولكن في خفية وتحت ستار الابتسام .

ولولا التفاوت ولولا النضال لما كان شئ اسمه قواعد الخلق ولا الآداب ولا الفضيلة بل لعاش الناس عيش أهل الجنة على مايصفهم الواصفون .

على أن ماسنه الناس قواعد للخلق قد أخذ صوراً وأشكالا عدة .وكل انسان ميال بطبيعة مزاجه وبظروف حياته وبتكوينه النفسى وبحكم البيئة الي صورة من هذه القواعد خاصة تختلف قليلا أو كثيراً عن الصورة التى يميل اليها سواه.وقد كان روسو ميالا الى نوع من الفضيلة الزاهدة في الترف مع نوع من الاعتذار عنه ونصيب من الرغبة فيه . نصيب يسمح له بالتخلص من ضرورات العيش مطمئنا الي نفسه والى تفكيراته وتأملاته من غير أن يذل هوله وان يستذل لذلك من سواه من الناس.ولعله عبر عن ذلك خير تعبير في رواية الهلويز حين قال عن جولي . (ولجولى نفس وجسم يتعاد لان في دقة الاحساس ، فعواطفها وأعضاؤها كلها الرقة . وهى قد خلقت لتذوق كل اللذائذ ولتعرفها . لذلك مربها زمن طويل كانت تحب فيه الفضيلة حبا جما

على أنها أشهى الشهوات. وهي تنهل اليوم من هذا المتاع الاسمى ولا ترفض ماسواه من صور المتاع مالم يتعارض معه . لكنها تسلك في المتاع باللذائذ سبيل القصد التي يسلكها من يرفضون اللذة . وفن المتاع عندها هو فن الامتناع — على ان لايكون امتناعا اليما يجرح الطبيعة ولا يرى فيه خالقها الا تحية سخيفة احرى بالازدراء والتحقير . بل امتناعا معتدلا موقوتا يحفظ للعقل حكمه ويحتفظ بالسرور في حدوده . فينفي عنه التقزز منه والاسراف فيه : وهي ترى أن حاجات الحس التي ليست من ضرورات الحياة يتغير طبعها اذا انقلبت عادة فينقضي العهد بها كلذة وتصبح حاجة لازمة وغلا يتقيد الانسان به ومتاعا يحرم نفسه منه . فسداد الرغائب ليس اذن هو وسيلة اقناعها بل وسيلة قتلها . لذلك تراها تجيب واحدة من عشرين من رغائبها فتجمل بذلك للرغبة المجابة قدرا و ثمنا وتحفظ على نفسها قوتها ولا تفنى بالاستهلاك لذتها .

« ولها من الامتناع غاية اشرف هى حكم نفسها وتعويد شهواتها الطاعة ورغائبها الخضوع، وتلك سبيل طريفة للسعادة، فان الانسان لايطمئن للمتاع الا بما يستطيع فقده من غير ألم، وأعجب مايظهر لي عجيبا فى اعتدال مزاجها انها تأخذني قصدها بالاسباب التي تدفع بالشهوانيين الى تطرفهم . وهى تقول ان

الحياة قصيرة حقا ويجب لذلك أن نتمتع بها الي غايتها وان نتصرف فيها جميعا بحذق كى نفيد منها اوفر حظ ممكن . ولو ان يوما تخمة اضاع علينا متاع عام لكان من اتعس صور الفلسفة ان ننقاد وراء رغائبنا ناسين انا قد نصل الى منتهي ضعفنا قبل ان نصل الى مدي وجودنا وأن قلبنا قد يميته الضعف قبل ان نموت . وهؤلاء الا بيقوريون السخفاء الذين يريدون ان لا تضيع منهم فرصة يضيعون الفرص جميعا . وشأنهم وهم يسرفون في الوقت ويدعون القصد فيه شان البخيل يحل به الخراب لانه لا يحسن النزول عن شيء يقضى الظرف بالنزول عنه . أما أنا فآخذ بنقيض هذا الرأى مع ميل للشدة فيه وميل عن التراخي ايا كان مقداره. وقد صادفني أن وقفت دون استكمال بعض ملذات رأيتني شغفت بها فلما عدت بعد ذلك اليها حصلت منها على ضعف المتاع ولم آل جهد اخلال ذلك كله في أن أجعل لأرادتى الحكم على نفسى مفضلة أن أرمى بالتشبث من أن أدع لشهواتى الحكم على»

يذكر القارئ الى جانب هذه الصور من انواع ملذات جولى صورة معاملتها لزوجها وأولادها وأصدقائها واتباعها على نحو ماوصفناه في الفصل السابق ، وتلك كلها هي قواعد الخلق التي يراها روسو . وتلك هي عنده فضائل الحياة ومفاتيح السعادة. لكن استفزاز هذه العواطف وتثبيت هذه القواعد في نفس

الناشئ لايكون باملائها عليه، اذ لابقاء لعاطفة ولا لقاعدة ولا لفكرة تملى من غير أن يكون لها أساس متين ، بل هي اسرع مايكون للتطور والتغير لتلائم مزاج صاحبها ونزعاته النفسية ، فلا بد اذن من تركيز احساس معين عند الناشئ تتفرع عليه العواطف والقواعد بطبعها وتؤتى ثمرها كما تنبت الفروع من الجزع ثم تؤتى أكلها نقيا سليما مادام الجزع قويا صحيحا .

والاساس المتين لهذه العواطف والقواعد هو الشفقة والكرم، والشفقة عند روسو عاطفة طبيعية لان أساسها الألم . يكفى ان يعرف الطفل ان امثاله يتألمون كما يتألم وان لهم آلاما خاصة بهم ليعلم انهم حقيقون بالعطف وبالمرحمه : فاذا تعهد الاستاذ هذا الاحساس الطبيعي في نفس الطفل بان عرض عليه مواضع الاشفاق واشترك معه فى مؤاساة المكلوم والعطف على البائس وابعده عما نميت هذا الشعور عنده كان قد مهد السبيل لارقى تربية خلقية ننتظرها .

لايرضى هذا الرأى انصار النضال وبقاء الاصلح من فلاسفة الاخلاق . هم يقولون ان عواطف الرحمة والاشفاق عواطف مخنثة تأباها الطبيعة التى لاتعنى ببقاء الضعفاء وقد نصبت التفاعل بين مختلف العناصر ومختلف الذرات اساسا لنظام الوجود . وما نفضل أحد الرأيين على الآخر ونحن نعتقد ان الحياة الانسانيه

هي المثل الاعلى لدوام التطور والحركة . فما يصدق على بعض الاحياء قد يصدق عليها حينا ثم لا يصدق في حين آخر . واذا نحن سلمنا بنظرية النضال الى منتهى مداها نفينا نظرية التعاون والتضامن وهى ليست أقل منها تمكنا فى حياة الوجود وفتحنا بابا للظلم الفادح باسم النضال . واذا سلمنا بنظرية الشفقة نفينا نظرية التنافس والتنافس حادث اجتماعي لا سبيل الى نفيه . وكذلك ترى أن الشأن هنا كالشأن في كل الاحداث الاجتماعية ، لا تستطيع اخضاعها لقانون نظري متطرف لانها تجمع بين دفتيها متناقض الاطراف

على أن لروسو عذرا واضحا في تكوين نظريته . فهو مسيحى لم يخرجه تقلبه بين البروتستانية والكثلكة ومعاشرته للمتشككة والملحدين عن مسيحيته ، بل بقي مؤمنا ثابت الايمان بانيا اياه على قواعد وحجج سيراها القارئ قريبا . والمسيحية دين الشفقة والرحمة . فطبيعي أن يؤمن روسو بها وأن يعتبرها اساسا للحياة الاخلاقية .

ثم ان حياة روسو وسبيله في العيش وما مر به من بؤس واحتمله من مكروه كل ذلك لم يكن الا ليزيده ايمانا بمبادىء المسيحية المحسنة الكريمة التى تجعل في معونة الفقير والبائس كبرى الفضائل ،

وانا ننقل هنا نص القواعد التى وضعها روسو ليسير عليها

المعلم في تربية تلميذه الاخلاقية . . . : « ليس من شأن القلب الانساني أن يترعرع في مكان من هم أسعد منا بل في مكان من هم أجدر منا بالاشفاق والمرحمة . . . وأنت لا ترق من أوصاب سواك الا لما تعتقدك غير معفى منه . . . والناس لا يشفقون على المصاب بمقدار مصيبته ولكن بمقدار ما يحسبونه من تألمه لتلك المصيبة» . . . وقد ايد روسو هذه القواعد على اعتبار انها الواقع وثم شرح كيف يهيئ تلميذه بالامثلة المحسوسة للشعور مع الانسانية المظلومة مقدراً أن ذلك الشعور هو اساس السعادة ثم قال : « سيلومني لاشك أكثر من قاريء على نسيان ما عزمت عليه بادىء الرأي وما وعدت به تلميذي من سعادة دائمة . فاي سعادة وأي متاع يجده القلب الشاب حين تفتحه للحياة في مناظر التعساء والمائتين ومشاهد الالم والبؤس . كأن معلمه التعس الذي هيأه لحياة ناعمة لم يعده الا للشقاء والالم . ذلك ما سيقال ولكنه لا يهمني . فقد آليت على نفسي أن أجعل تلميذي سعيدا لا أن أعده ليتظاهر بالسعادة » . والسعادة لا تكون الا بمشاركة الناس في آلامهم والعمل لتخفيف ما يعانونه منها ، اما النفوس التي تظهر غير ما تبطن فتملى افكار الانتقام على ثغرها الخداع بسمات الغدر . وهي تتقن ضحكة الاستهزاء ولا تعرف ضحكة السرور ، وتحمل في تجاعيدها الوقاحة الظريفة والظرف الوقح . تلك

النفوس لا يفتر الا لم يحز فيها حتى يميتها ويفقدها أرقى المعانى الانسانيه . معنى الشعور والواجب .

الواجب ؟ احسبنى بهذه الكلمة قد عدوت فكرة روسو . فهو لم يكن يعرف الواجب كثيراً . وهل ترى في الجمعية التى يصبو هو اليها . تلك الجمعية الساذجة التى لم تغادر بعد حدود الحياة المستوحشة . تلك الجمعية الزاهدة في نعم العيش لتكون بعيدة عن آلامه . تلك الجمعية الصريحة بطبيعة تكوينها والتى لاتحتاج في الحياة كبير عناء لتحصل على كل مطالب الحياة . هل ترى في تلك الجمعية معنى حقيقيا لكلمة الوجب أم تراها جمعية تتحكم فيها الفطرة كما تتحكم في انواع الحيوان الاخرى

لذلك كان كل معنى الواجب عند روسو هو العودة الي هذه الجمعية العائشة على بساطة الفطرة في أحضان الطبيعة السعيدة ينعم افرادها جميعا بنعمة المساواة ثم لا يفسدها عليهم مايستلزمه الترف من كثره الحاجات ومن الاشتباك بالغير اشتبا كا ينتهى بالخضوع وبالفساد . بل يبقي كل منهم قليل الحاجات بعيداً عن الخضوع للغير كامل الحرية موفور السعاده .

* * *

وهنا ينتقل روسو للكلام عن التربية السياسية . وهى في رأيه جزء من قواعد الخلق . «أما أولئك الذين يريدون ان ينظروا

في السياسة وفي الخلق منفصلين فلن يفهموا أيا منهما». لكن التربية السياسيه تحتاج تعليما ايجابيا. فقد بلغ الناس من الامعان في الفساد حتى لو انك تركت الناشئ يحكم عليهم بالنظر اليهم والبحث في شؤنهم لانتهي به الامر للتقزز منهم ولكرههم. أما أن عرف انهم في الخطيئة عن غير قصد منهم. وأنها ظروف التطور هى التي دفعت بهم اليها أذن لأخذته الشفقة من أجلهم والرأفة بحالهم. ثم لفكر في سبيل الاصلاح الواجب اتباعها للخروج بهم من شقائهم

وسبيل الاصلاح التى يريد روسو ان يلقنها تاميذه هى تلك السبيل التى نادى هو بها من قبل في خطاب العلوم والفنون وفي خطاب التفاوت وفي خطاب المناظر. فالانسان طيب بطبعه والمساواة حال طبيعية أفسدها الناس في جماعاتهم ثم هم لا يزالون يتشدقون باسمها. فهم يتكلمون عن المساواة أمام القانون أو المساواة في الحقوق وهى ليست الا خيالا ووهما. فان الوسائل التى أعدت لصيانتها تعمل على هدمها والقوة العامة تفسد بانحيازها للقوي كل توازن أقامته الطبيعة بين الناس والروح العامة لقوانين كل البلاد تميز القوى على الضعيف ومن يملك على من لا يملك. هذا عيب لا مفر منه والا استثناء له» واذ قد ترتب على التفاوت ما ترزح الانسانيه تحته

من شقاء وتعس ؛ فلا بد من اعداد الناشئة لتخليصها من هذا الهم القتال . ولن يكون ذلك الا اذا وجهت عواطف النشىء لاقامة جماعة لا يكون لطائفة فيها امتياز على طائفة ويخضع فيها الكل للقانون على السواء ويكون حماة القانون فيها أكبر من ان تؤثر فيهم الاعتبارات الخاصة وأحرص من كل من سواهم على جعل الشرع مظهر اللأدارة العامة حتى يكون كل فرد انما يطيع ارادة هو فيها شريك وسلطانا هو من بين أصحابه . وبذلك يمكن أن تتحقق فكرة المساواة امام القانون على نحو مايريدها متشدقوا ذلك العصر .

لسنا بحاجة للدخول في تفاصيل النظام فسيكون موضع ذلك عند الكلام على كتاب العقد الاجتماعى . وانما نقول ان وسيلة تعويد النشىء على الميل اليه الاسفار وملاحظة الجماعات والشعوب . وليس من شك في ان روسو اميل الى الشعوب والجماعات الصغيرة . وقد رأي القارىء من ذلك الميل شيئا غير قليل في رواية الهلويز وعرف ان سببه ما كان عند روسو من الهيام بوطنه جنيف هياما كانت تزيده المساآت والآلام قوة وتأصلا .

الي جانب الاسفار تجيء قراءه كتب التاريخ وقد سبق بنا القول في شأنها وفى رأى روسو فى كتب التاريخ وفي تراجم الابطال بمالا يدع محلا للعودة اليه او للمزيد فيه

* * *

ماأشك في ان القاريء قدساءل لنفسه غير مرة : والمسألة الدينية . الاله . سر الوجود . الجزاء الابدى . اننى لم اسمع بعد عن شيء من ذلك كله كلمة وقد سمعت ان روسو رجل مؤمن متدين سولع بدينه وبالبحث فيه . فكيف به وقد نسى تلميذه في ظلمات الجهل من هذه الجهة و كأنى به يريد تخريجه زنديقا ملحدا

رويدك ياسيدى القاريء . ان روسو لايريد ان يعرض على الطفل شيئا ليحفظه عن ظاهر قلبه من غير ان يفهمه . ذلك بانه يرى ان عرض الحقيقة على من لاتسمح لهم حاهم بفهمها يحل محلها الخطأ والضلال . والمسائل الفلسفية والمسألة الدينية ليست في متناول العقول الساذجة ولا مما تستطيع عقول الاطفال دركه وتفهمه . فاذا انت عرضت على الطفل اية فكرة عن الله رأيته قدس الصورة في خياله من غير أن تقرها ملكات عقله . وخطر ذلك صريح واضح . فالطفل المقدس بخياله يصبح متعصبا تعصبا أعمى كارها لاخوانه بنى الانسان الذين لايدينون بدينه لغير سبب يفهمه . ولعمرك هل ترى فرقا بين تعصب مسلم الأستانة ومسيحى باريس . فايهما على الحق . ولو ان مسيحى باريس ولد عند قرن الذهب من ابوين مسلمين او لو ان مسلم الأستانة ولد على ضفاف السين والقيت اليهما فكرة الدين قبل ان يصل احدهما

لادراكها أفلا ينقلب الحال في شان التعصب . نم هما في تعصبهما على الباطل جميعا وان كانت عقيدتهما متقاربتين تحويان من الحق مقادير متعادله

كذلك يقول روسو اذ يري في عرض مسائل الدين والفلسفة على الأطفال خطرا غير قليل . وحجته في هذا أن عاقبة تلقين قواعد الدين للطفل ان يبقى طوال حياته طفلا في تعصبه لها وغضبه من اجلها ونفوره ممن لايشاركه فيها .او ان ينفر من هذه القواعد متى بلغ رشاده وينفيها جميعا لما يخالط حقها من باطل ولما تقف بجمود بعض قواعدها في وجه الحياة وفي سبيل العلم

وليس من شك في أن حشد الخيال ابان الصغر بالافكار العالية الخاصة بالروح وبخلودها وبالأختيار وبالجبر وبالله وبصفاته مما لايستطيع الذهن له ادراكا يجعلنا نأبى العودة لبحث هذه المسائل ابان الرجولة اذ تصبح في نظرنا وكانها من خصائص الأطفال . فاذا نحن عنينا ببحثها بعد ذلك واجهنا حتما بعض تفاهات سخائف مما كانت طفولتنا تقضى بأضافته على هذه الافكار السامية حتى يستطيع خيالنا الغض ان يسيغها . فاما رجعنا امام هده التفاهات الى حرز الأيمان والتسليم وبقينا في تعصبنا القديم ،واما تقززنا بسبب هذه السخائف مما كنا من قبل

فر منه فنفيناه . والأقلون منا هم الذين يصبرون ويصابرون لتمحيص تلك الألفكار تمحيصا جديا من جديد .

على ان روسو لم يسلم في هذه المسألة من اعتراضين عمليين :ـ اولها قائم على اعتبار العقيدة والدين قاعدة للخلق ووسيلة عملية للسير في الحياة . فهما يكبحان جماح النفس ويحولان بينها وبين النقائص لتقريرهما حرمتها ولبيان ما يترتب عليها من الجزاء في الآخرة . وهذا الرأى الذى أبداه جول لمتر لا يقوم عند كثيرين اعتراضاً على روسو . فقد جعل روسو من تربية الحوادث ما يقمع فى النفس ثورة الشر ان راضت الشاب على حسن تقدير النتائج بعد فهم مسبباتها . فالشاب الذى رباه روسو لا يرتكب الشر اشاحة بقلبه الطاهر عن الشر ونظرا لما يترتب عليه من النتائج السيئة ولو في مستقبل بعيد . وليس من شك فى انه في هذا يفضل المبتعد عن الشر لغير سبب الا مخافة عقاب الآخرة .

اما الاعتراض الثانى فقائم على أنك لن تضمن بقاء الطفل بعيداً عن المسألة في أمور الدين الى أن تعرضها عليه . فان طلعة الصغار شديدة ولا تخشى مفاجأة أصعب المسائل . وأى طفل لم يسأل من أمور الحياة في أدقها . فكيف كان الماء ؟ أمطرته السحب . وكيف كانت السحب ؟ كونها بخار الماء المتصاعد

بسبب حرارة الشمس . ولكن كيف كانت الشمس وكيف كان الماء ؟ هذه سلسلة من المسائل التى ترد على لسان الاطفال والتى يفر اكثر الآباء منها عن الله بعرض فكرة يضل فيها خيال الطفل زمنا ثم يكبرها بسبب هذا الضلال ثم يؤمن بها بسبب اكباره اياها ثم تصبح عنده عقيدة على نحو ما سبق بيانه، ولاسبيل لاتقاء الخطر الا بالزام الطفل السكوت . وما دام تلميذ روسو قد اعتاد الطاعة فهو لا يجد في هذا السكوت خروجا على قاعدة سابقة

الي جانب الاعتراضين العمليين السابقين يوجه الى روسو اعتراض عام . لماذا يرى ضرورة عرض المسألة الدينية على الشاب عن طريق التعليم والتلقين ما دام الشاب قد وصل من ملاحظاته ومن سنه الي مقام يسمح له بفحص الاشياء والافكار وبتقديرها قيمتها . أفلا كان من الواجب أن تطرح عليه أوجه النظر المختلفة بله المتناقضة ليمحصها وليختار منها ما يشاء. واذا كان روسو قد انتقل من البروتستانتية الي الكثلكة واختلط بالملحدين وبحث هذا كله ووصل منه الى رأى ونتيجة، فلم لايسمح لتلاميذه بمثل هذه الحرية في البحث والنظر.. ان نظريات التدين والالحاد والشك كثيرة يتباين بعضها ويتقارب البعض مع وجود اختلاف يسمح لكل أن يكون ذا شخصية مستقلة بارزة . وهل نظرة كل منا

الى هذه المسائل الامتعلقة بمزاجه وبأمنيته في السعادة...أو على الاقل في الطمأنينة في الحياة. فالمعتزل والمتقشف يبغى من عزلته ومن تقشفه مايبغيه المترف والمتطرف في الابيقورية من نعمة السعادة . ألم تر قوما نزلوا عن كل معانى النعمة وأخذوا باسباب الزهد طمعا في السعادة . وهل لم تر آخرين كانوا قد زهدوا في الحياة ثم رأوا زهدهم سخرية وهزوا فرجعوا الى الحياة و نعيمها معتبرين الالم عرضا مهما تطاول به العهد مؤمنين بساعة النعيم مقدرين فيها عوضا عن كل شقاوة وتعس

والزاهدون يقيمون رأيهم في الزهد على احدي فكرتين متناقضتين :: التخلى عن لذائذ هذا العالم طمعا في نعيم العالم الآخر، أو التخلى عن كل نعيم ولذة لان اللذة والنعيم هما أساس الشقاوة والألم . كذلك يقيم الناعمون رأيهم على فكرتين متناقضتين .: الاقتناع بان هذه الحياة الدنيا هى دار النعيم . أو القول بالعمل للدنيا كانك تعيش فيها ابداً وللآخره كأنك تموت غـداً . فاي هؤلاء جميعاً على الحق . ولم تريد بتلميذك أن ياخذ فى سبيل ربما كانت أضل السبل اذا قرنت الى مزاجه

لكن روسو لم يفكر فى هذا الاعتراض ولم يعن به : هو قد وصل الي رأي اعتقده حقا . وهو يرى وجوب الوصول بتلميذه لدرك هذا الحق

***

ما هو هذا الحق الذى سيعرضه روسو على تلميذه . انه يرى في الاديان جميعاً أساسا الحقيقة. ويري التعصب لاي دين سخافة لا تغتفر. ويرى الايمان امرا لايحتمل الشك . لهذا فهو سيعرض على تلميذه الذى رباه ليكون رجل الطبيعة دينا هو الدين الطبيعى، وسيعرضه على لسان قس من السافوا مخافة ان يؤخذ هو به وينفي من اجله

يذكر القارىء أن روسو كان ايام تشرده في ايطاليا بعد تركه ما دام دفارنس قد دخل ديراً في تورين وقد قابل بعد ذلك قسيسا اسمه جيم قال روسو فى اعتراقاته انه هو الذى هداه في عقيدته وانه هو قسيس السافوا الذي ضربه مثلا لصاحب الديانة الطبيعية في كتاب التربية . على ان مراجعة تعاليم قسيس السافوا في كتاب التربية تقنعنا ان هذا القسيس الداعى للديانة الطبيعية هو روسو نفسه . وهو هنا كاميل في التربية وكسان يرى في الهلويز وكالرجل الطبيعى في خطاب التفاوت تلك الصورة المحبوبة التى يعشقها روسو من كل قلبه . صورة ذاته على ما يحب لذاته ان تكون

ولد هذا القسيس مزارعا فقيرا مهيأ بمركزه الاجتماعى لفلاحة الارض واستغلالها . لكن ابواه ارادا ان يخرج من هذه المهنة

ليكون رجلا من رجال الدين . وهما لم يريدا ذلك حبا في الحق ولكن طمعا في مركز حسن لابنهما

بلغ الغلام ما اراد ابواه ان يبلغه ، واصبح قسا ومنع عليه ان تكون له زوج او عائلة

وعلى الرغم مما يبيحه له مركزه من الاختلاط بالعائلات فقد كان شديد الاحترام لفراش غيره . لذلك انفضحت اغلاطه وغضب رئيسه عليه فشعر بالظلم وثارت نفسه ضد ماغرس فيها من تعاليم الكنيسة عن العدل والحق والشرف وشك في كل ما كان من قبل مقتنعا بصحته

« تلك حال حرجة اليمة فليس من شأنها ان تدوم . وانما يحبسنا عندها مقتضى النقص او خمول الفؤاد . ولم يكن قلبي من الفساد بحيث استريح لها . وخير ما يحفظ علينا عادة التفكير ان تكون اكثر اطمئنانا لانفسنا منا لحظنا »

فاندفع يفكر فيما عرض عليه من قبل مطرحا اقوال غيره جانبا : « فما من مفكر الا يعلم ان طريقته ليست أحسن من طريقة سواه ولكنه يودها لانها طريقته . وما منهم بعد ماعرف الحق من الباطل الا يفضل الكذب الذي ابدعه على الحقيقة التي كشف عنها غيره . واين ترى ذلك الفيلسوف الذي لا يرضى لجده ان يضل مختاراً بالنوع الانساني كله . فتفكير كل لذاته اجدى عليه من

تلك الطرائق التي وضعها اصحابها سلما للمجد ووسيلة للشهرة »

(ذلك راى روسو فما راى القارئ في طريقة روسو وما راي روسو في طريقته)

واول ما وصل القسيس اليه من تفكيره ان وقف ببحاثه عند ما يعنيه مباشرة مستعينا في ذلك بنور نفسه لا بما لغيره من لآلاء كاذب .وقد هداه نور نفسه من اول الامر الى الايمان بالله . ولم تكن هدايته للايمان نتيجة حجة او دليل ولكن لان الايمان نظرية عظيمة مسلية تسمو بالنفس وتضع للفضيلة اساسها وقوامها . وهي كذلك واضحة جلية لا يجد الذهن الانساني فيها من التعقيد مايجده في سخافات الافكار الاخرى. ومادام قصور الذهن الانساني يعجزه عن حل بعض الاعتراضات التي توجه لكل النظريات فلا يصح اعتبار هذا العجز حجة قائمة ضد اية نظرية يقرها العقل ويهدى اليها نور النفس

ذلك تدليل قسيس السافوا في امر النظرية الالهية . اما نظرية الاختيار في الحياة فقائمة عنده على ان الحركات قسمان . ارادية Spontané ونقلية Communiqué . فاما النقلية فترجع الى سبب خارج عن الجسم المتحرك، وأما الارادية فقائمة به. والنقلية كحركة الساعة لا تتحرك الا بدافع غير قائم بها . اما حركة الحيوان فادخل عند روسو في باب الحركات الارادية

فان شئت ان تعلم كيف عرف روسو ان هناك حركات ارادية فهو يقول لك: « أنا أعلم بها لأنى احسها. انا اريد ان أحرك ذراعي فاحركه من غير ان يكون ثمت سبب مباشر الا ارادتى . وعبثا يحاول من يريد اقامة الحجة ليفسد عندي هذا الاحساس فهو عنـدي أقوي من كل شـاهد . والا لصح ان تقام لي الحجة على اننى غير موجود »

وكأنما شعر روسو أن النور الداخلى ليس كافيا هنا كـفايته فى النظرية الالهية . لان الحركة مظهر محسوس مصدره المادة المحسوسة . فذهب الي ان الاصل في المادة السكون والى ان الذرة الحية ليست من الامور الممكنة الفهم عنـده . وما دام السكون هو الاصل في المادة فالحركة عرض خارج عنها لا يتأتى الا بارادة غـير ماثلة فيها . وهذه الارادة هي بالنسبة للعوالم قوة الآله المسيرة للكون على سنن معينة ؛ وبالنسبة للانسان ارادته الذاتية المختارة في حركتها

لا اريد ان اعرض لنقد هذه الفكرة باكثر من ان ماعجز روسو عن تصوره من وجود الذرة الحية وحركتها قد أصبح حقيقة لاتحتمل الجدل . ومن ان السنن المعينة التى يسير عليها الكون تحكم الجماعة الانسانية وتحكم الفرد حكما يجعل الحرية وهما ان أمكن تصور خياله في الجزئيات التافهة فمحال تصوره في مجموع

الحياة المؤثر كل التأثير على هذه الجزئيات(١)

والآن فلنتخط هذه المسألة لما بعدها . . . . « اذا كشفت لي المادة المحركة عن ارادة فان المادة المحركة وفاقا لقوانين ثابته تكشف لي عن بصيرة . والارادة والبصيرة من عمل موجود تراه عيوننا في السماوات الدائرة والنجم المضيء وفي كل حي وفي كل مظهر » . . . . . وهنا ينطلق روسو يذكر الوجود والموجد بقوة وحرارة ايمان قل ان ارتقى الي مثلهما كاتب من قبله . وهنا يرتعش أسلوبه تارة وينزل على الماديين غضبه اخرى ثم يرتفع بتصوره الى ارتباط ما بين الكائنات ارتباطاً لا يمكن حدوثه عبثاً . وهنا يمهد رسو لرجال الكنيسة في فرنسا السبيل للامر بالقبض عليه كهرطيق خارج على الكنيسة فيفر من فرنسا ويقابل في كل مكان باللعنة لهرطقته ولمحاربته قواعد الايمان

«هذا الموجود الذي يريد ويقدر والقائم بذاته نشاطه . هذا الموجود الذى يحرك الوجود ويدبر كل شيء هو ايا كان شأنه ذلك الذى اسميه الله . والى هذا الاسم اقرن صور البصيرة

(١) راجع مانشرناه مطولا في اعداد يناير وفبراير ومارس وابريل ومايو من مجلة المقتطف سنة ١٩١٧ بعنوان القدرية والجبرية

والقوة والارادة والطيبة التى تترتب حتما عليها . ولكني لم أعرف ماهية هذا الموجود الذي اطلقت عليه ذلك الاسم . بل هوخفى على حسى وعلى ذهنى سواء بسواء. وانا كلما فكرت فيه ازددت حيرة واختلاطا . فأنا اعلم قطعا انه موجود وانه قائم بذاته. واعلم ان وجودي تابع لوجوده . وان كل الاشياء التى اعرفها شأنها في ذلك شأنى. أنا ارى الله في كل مكان تدل عليه خلائقه . أنا اشعر به في نفسى واراه في كل ماحولى . لكنى كلما حاولت مشاهدته في نفسه والبحث عن مكانه وعن ماهيته وكيانه غاب عنى ولم يرد ذهنى المضطرب من ذلك شيئا »

لهذا لامحل للبحث فيما ليس للوصول اليه سبيل . ولهذا انتقل قسيس السافوا للنظر في امر الانسان . فرأي انه خير الخلائق لأنه من دونها جميعا هو الذى يستطيع ملاحظتها والحكم عليها والتحكم فيها . لكن افضليته عليها لاتدعو الى كبرياء ولا الى مجد وفخر ، بل الي اعتراف بمجد الله وبحسن صنيعه

هذا المخلوق المفضل . هذا الانسان الذى يحكم على غيره ويتحكم فيه. هذا الجالس من الوجود في الذروة الى جانب عرش خالق الوجود . هذا الانسان ليس مع سمو مكانه ممتعا بما يتمتع به غيره من حيوان ومخلوق من سعادة؛ هو اشقى منها جميعا . هو الذى يقاسى آلام التفاوت وشقوة الظلم والتعس؛ فكيف كان هذا

التناقض .

الحقيقة ان لا تناقض الا عند الماديين، وانما هو الاختلاف بين الروح والجسد. فالروح تتعلق بالحقائق الخالدة وبالعدالة وبالعالم النفساني الذي يعيش العاقل الحكيم في عليا مناطقه . والجسد ينزل الى حكم الحواس والشهوات وكل ما هنالك مما في عالم النقص والفساد... وليس من روح الا للانسان . اما الماديون الذين يقولون بان الحجر يشعر كما يشعر الانسان وان القوة ليست الا مظهرا من مظاهر المادة فانما يحكمون على الاشياء الروحية التي لا يسهل على العقل الانساني دركها حكم الاصم على الاصوات ينكرها لانه لا يحس بها وهي مع ذلك حاصلة . كذلك ينكر الماديون الروح لانهم لا يحسون منها ذلك السلطان المصرف لحوادث الكون . فكما ان الاصوات توجد رغم انكار الاصم كذلك توجد الروح رغم انكار المادي .

تلك تعاليم روسو . ويجب ان يكون الانسان روحيا ليؤمن بها وليقدر مداها، كما يجب ان يكون الانسان سميعا ليقدر حجج السميع والاصم ويحكم بينهما . ذلك مع وجود فرق بين الحالين . فالسمع حاسة تتصل بالوجود المحسوس في أثرها وتأثرها . والروح التي يعبر عنها روسو قوة تتصل بالعالم المعنوي من غير ان يكون لها في العالم المحسوس اثر محسوس .

وجود الروح ينفي التناقض الذي يزعمه الماديون . ذلك بان الانسان كما سبق القول مريد مختار . وليس معنى الاختيار الضرب في تيهاء الفوضى . فأنا بلا شك لست حرا في ان لا اريد الخير لنفسي . ولست حرا في ارادة الشر لنفسي . وانما قوام حريتي ان لا اريد الا ما يوافقني او ما اراه كذلك من غير ان يكون لشيء سواي مدخل في اختياري . وليس تفسير الاختيار على هذه الصورة بالعجيب . فان الله خلق الانسان على صورته . والله لا يريد الا الخير لتعلقه بطبيعة وجوده . والخير هو التوازن وهو نظام العالم . فالشر خروج على النظام واخلال بالتوازن . وهو مهما تعاظم فلن يصل من الاخلال بالتوازن الى شيء في امر العالم العظيم . لهذا لا محل للتساؤل عن سبب عدم مداخلة الموجود الاعلى لمنع هذا الشر ولكبح جماح الفساد . ولهذا كان الانسان اكثر اختيارا وأثقل مسؤلية .

اختيار الخير اساس السعادة : اما الشر فلا يلد الا بؤسا وتعسا : واحزاننا ومخاوفنا وآلامنا انما تصيبنا من عند انفسنا . والشر الخلقي هو قطعا من عملنا كما ان الشر الجسمي لن يكون شيئا لولا فسادنا الذي يجعلنا نحس هذا الشر ونشعر به . الا ترى الى الطبيعة كيف جعلتنا نحس بحاجاتنا حتى يظل وجودنا . الا ترى ان الالم المادي انما هو آية ارتياك جسمنا والنذير لاتقاء هذا الارتباك .

اما الموت فهو الدواء لما توقعك فيه اعمالك من الشرور . ذلك بأن الطبيعة أرادت ان لا يمتد بك الالم الي الابد .

وما أقل ما يلقاه الرجل الذى يعيش عيش البساطة الفطرية من مواضع الألم. فهو يعيش من غير مرض ومن غير شهوة وهو لا يتوقع الموت ولا يحس به . فاذا هو احسه كان فيه راغباً حبا في الخلاص من شقونه وآلامه . وكان لذلك لا يرى فيه شرا . ولو انك خلصت الناس من هذا التقدم المزعوم ومما جره عليهم من شرور وخطايا ثم لو انك رجعت بهم الى عيش الطبيعة ووحيها اذن لأنجيتهم من الشر ومن العذاب ومن خوف الموت

واختيار الخير من عمل الروح والارتكاس فى الشر من نزوات شهوات الجسد. وما نزل اليه من درك الشر طوعا بحكم الشهوة وخروجا على أمر الروح هو الذي يسرع بجسدنا الي الفناء وهو الذي يجعلنا نشعر بالم الموت . واولئك المنعمون الذين يظلمون الناس ويضربون بالفضيلة عرض الافق ويزعمون النعيم على هذه الارض هم الذين يقاسون هذا الالم أكثر من سواهم. ذلك عدل الخبير البصير

يوم تفترق الروح عن الجسد يرجع اليها كامل نشاطها : فتبدأ بالتكفير عما سبق لها من ضعف في قياد الجسد ومن خمول في تغليب الخير على الشر . ويومئذ ترى الروح التى كانت مثقلة

الجناح أبان عيش الجسد تحيي حياة طيبة بعد هلاكه

« هل الروح خالدة بطبعها ؟ ذلك ما أجهله. فان عقلي المحدود لا يسع شيئا غير محدود . وكل مالا نهاية له يعزب عني ... وانما احسب ان الروح تبقى بعد الجسد أمدا يكفل حسن النظام. وليس من يدري اذا كان الامد يمتد الي الخلود. ولكنني اذا قدرت على تصور كيفية هلاك الجسد وفنائه بتشتت أجزائه فلست أستطيع تصور هلاك كهذا للموجود المفكر . ومادمت لا أستطيع تصور كيفية هلاكه فاحسبه لا يهلك. وما دام في هذا الظن عزاء وليس فيه مايتنافي مع العقل فلست أدري ما الذي أخشاه اذا أنا أخذت به »

... اذن فالروح خالدة ان كان الدليل على وجودها مجرد احساس روسو ان ليس لديه على هلاكها من دليل

هذه الروح الخالدة تحيي حياة طيبة بعد هلاك الجسد. وهي تحيى سعيدة أو شقية بما قام به صاحبها ابان حياة الجسد من خير أو شر. ذلك بانها وقد جاوزت الكائن الاسمي وخلصت من هموم الحياة الدنيا ترجع الي نفسها تحاسبها عما قدمت ثم تقيسه الى الحقيقة الخالدة البادية أمامها والتي كانت هي مثالا لها على الارض.. وليس يعلم قسيس السافوا ان كان تمت جزاء للروح غير السعادة أو الشقاء في جوار الله . وهو لا يعلم كذلك اذا كان شقاء

الارواح التعسة [illegible] وهو تكفير ينتهي بالغفران. ولكنه يشعر بان السعادة في جوار الله خير نعمة تجعل العيش على هذه الارض لذة تدفع الى معالجة الفضيلة ومجاهدة الشر أثناء الحياة... وكيف لا يكون ذلك لذيذا . وهل لذة في الحياة الا لذة المجهود الشاق ينتهي بنعمة السعادة الخالدة

جزاء الروح نتيجة أعمالنا في الحياة الدنيا. فاذا كانت روحنا قوية فاسمعتنا صوتها وأخذنا به ظلت سعيدة. وان كانت ضعيفة فخضعت لحكم الجسد وأخضعتنا كانت شقية... ذلك بأن الضمير صوت الروح والشهوات صوت الجسد . فهل عجب ان يغلب على هذين الصوتين التناقض . واذن فلا ى نستمع؟ ما أكثر ما يضلنا العقل حتى لقد صار من حقنا الثابت ان نرد حكمه. أما الضمير فلن يضلنا. هو مرشد الانسان الحق وهو للروح بمكان الفطرة من الجسد. فمن اتبعه أطاع الطبيعة ولم يخش ضلالا.

الضمير صوت الروح، والروح من امر الله. والله لا يريد الا الخير. فالروح لا تعمل الا للخير . والروح هي اساس وجودنا وهي القوة التي تبعث الحياة في الجسد الكثيف . اذن فالخير في أساس وجودنا . واذن فالانسان طيب بطبعه

الانسان طيب بطبعه . ما أعز هذه الصيغة على روسو . لقد رأيناها في خطاب عدم المساواة ورأيناها في كل ما كتب بعد

ذلك • وهانحن اليوم نراه يدلل عليها تدليلا تجريديا بعدمادلل عليها تدليلا تاريخيا

وتدليله التجريدي في أبسط صوره هو على ما رأيت ان الله خلق الانسان على صورته • والله طيب بطبعه • فالانسان طيب بطبعه • وليس في مظاهر الحياة الا مايؤيد ان الشر ليس الا خبثا يغطي الاصل الطيب الى حد اخفائه أحيانا ولكن من غير ان يحل محله ابدا .وهل رأيت نفسا مهما بلغ من قسوتها الا متأهبة لعمل الخير عند سنوح الفرصة · وهل رأيتك يوما وقد أفدت لنفسك بشر جنية على غيرك الا حز الندم في قلبك ،فاذا أفدت غيرك خيراً تريد أفادته اياه رأيتك سعيداً أكبر السعادة... وهلا ترانا جميعا نفرح للخير ونجزع للشر ونظهر بالخير ونتواري من جنى النكر « شأننافي ذلك شأن الناس جميعا.الق بنظرك على كل أمم الارض وراجع كل التواريخ ترى أفكار العدالة والامانة كما ترى مباديء الاخلاق وصور الخير والشر هي هي بعينها فيها جميعا : ذلك بأن مبدأ العدالة والفضيلة أصيل فى أعماق النفوس.ونحن على الرغم من قواعدنا نقيس على مقتضاه أعمالنا وأعمال سوانا وعلى مقتضاه نفرق بين الطيب منها والخبيث،وهذا المبدأ هو ماأسميه أنا الضمير»...

هنا يشعر روسو بالاعتراض يوجه اليه من كل جانب . فهو

يري . او بالاحرى يشعر ، بان الضمير هو فكرة الخير القائمة بالنفس الانسانية من حين خلقها . ويرى لذلك ان الخير والشر والحق والباطل والطيب والخبيث صور وافكار ثابتة لا يعمل فيها زمان ولا مكان . اما غيره فيقول ان الضمير الفردى ليس الا صورة وجدان المجموع منطبعة في نفس الفرد . ولما كانت آى ايمان المجموع افكارا نسبية هي الاخرى لانها ليست الا التعبير عن احسن الظروف التى يمكن للمجموع ان يعيش فيها فممكن بل حاصل أن آى الايمان تختلف من جيل لجيل ومن أمة لأمة . ألست ترى ان النهب والسلب كانا مجداً في زمن من الازمان وعلما على الفروسية ثم أصبحا من بعد ذلك جريمة تجزى باشد العقاب . وقد بلغ احترام الملك الخاص مبلغ العقيدة العامة في الماضى القريب ، وها هو اليوم موضع الطعن والنضال من كل جانب . صحيح أن القواعد الاساسية لحياة الجماعات لم تتغير تغيراً جوهريا فيما نعلم . وأن الفطرة الحاكمة فطرة الاحتفاظ بالوجود لا تزال توجهنا سبيلنا وتوحى الينا بطرق سلوكنا . لكن هذه الفطرة ليست من امر الروح . وهي ليست الاملاءمة الجزء للكل الذي يشمله ملاءمة مادية اولا . وهذه الملاءمة تتغير صورها بتمور وجود الكل . وهذه الملاءمة هى التى تشكل الضمير الفردي على مقتضياتها

على أن روسو لم يقف امام هذه الاعتراضات ولم يردعليها باكثر من أنها لا تتفق مع حسه وشعوره وبانه ليس محالا ان تترتب اعمالنا على مقتضى ضميرنا وادراكنا . ثم قضى عليها قضاءاً أخيراً بهذه الصيحة الخطابية الشعرية البديعة : « ايه أيها الضمير . ايه أيتها الفطرة الالهية والصوت السماوى الخالد . ايه أيها القائد المسكين لمخلوق جاهل قصير مدي النظر حر بصير . ايه ايها الحكم الفارق بين الخير والشر . ايه يا من تجعل الانسان شبيها بالله. أنت الاساس لطبعه الطيب ولتأدب اعماله . ولست أرى شيئا غيرك يرفعنى فوق البهائم الا ماامتاز به من الضرب فى الضلال مستعينا بذهن لا نظام له وبعقل ليس له من أساس»

لكنه يشعر باعتراض آخر يحسمه ذا خطر . اذا كان الضمير هو صوت الروح والمرشد للخير فلم استعبدت الروح للجسد استعباداً يجعلها فى ضلال مستمر معه . وبعبارة أخري لم كان للشر مثل ما للخير على الارض من سلطان

ان القطع في أمر هذا الاعتراض لا يكون الا لمن دخل في علم الله . اما علمنا فيرشدنا الى أن الشر انما وجد على الارض ليكون الخير ولتكون الفضيلة وليكون لمثوبتهما بالسعادة الخالدة في الدار الآخرة موضع

ولا سبيل للاستماع لصوت الضمير ووحي الروح الا بالخلوص

من حكم المادة . ولن يكون خلاص الا بالعودة للحال الطبيعية. فان المدنية وأذيالها من ترف ونعيم ومن علوم وفنون ومن فلسفة وتفكير لا شأن لها الا أن تغشى على الضمير وتحجب وحي الروح وتزيد في حكم المادة وتقعد بالنفس عن الاتصال بملكوت الله . فاذا نحن نجونا من حكم المادة اتسع نطاق العالم أمامنا وامتدت الي اللانهاية آفاق روحنا فوجدنا في هذه السعة مسرة للنفس وسبيلا للسعادة

«ولأرتق قدر المستطاع الى تلك الحال من السعادة والقوة والحرية جعلت أروض نفسي على التأملات العليا . فتأملت نظام العالم لا بغية تفسيره بعبث من الطرائق بل لدوام الاعجاب به واجلالا للخالق الحكيم الذي تظهر آثاره من خلاله . ثم ناجيته حتى استغرقت كل قواي فيه وحتي ذقت فضله وباركتني روحه المقدسة لكنني لم أسأل له و لم أرجه شيئا . وأي شيء أطلب اليه . أأطلب اليه ان يغير نظام الاشياء من أجلي أو أن يحدث المعجزات لمصلحتي . وهل كنت وأنا اعشق النظام الذي أقامته حكمته وأمسكته قدرته لاريد أن يضطرب هذا النظام لفائدتي؟ كلا . فان هذه الرغبة الحرقاء أجدر بان تجزى منها بان تجاب. ولست أطلب اليه أن يقدرني على عمل الخير فما كان لي ان أطلب اليه ما سبق أن أعطاه لي»

***

لاحظ القارئ من غير شك أن قسيس السافواو هو رجل من رجال الدين لم يلجأ في كل ما قدم من تعاليمه الا لوحي الضمير وهدى البصيرة . وهـذا ما لاحظه محـدثه في كتاب روسو . فسأله رأيه في الوحي والنبوة والرسالة . فما لبث أن انطلق انطلاقته الاولي حين مجد الله ورآه في كل اعماله . لكنه انطلق هنا ينفى الوحي والنبوة والرسالة بمثل تلك القوة والشدة. وهو لم يكتف بنفيها بل جعلها أساسا لعدم التسامح بين الناس ولما جر اليه عـدم التسامح من حروب اريقت فيها دماء وأزهقت فيهـا أرواح وما لا يزال يجر اليه من فتور عـلاقات الاخوة الانسانية الواجب ان تكون

قال : « يزعمون وجوب الوحي لتعليم الناس طريق عبادة الله. ويقدمون دليـلا على زعمهم اختـلاف الاديان العجيبة التى أقاموها. ولا يرون أن هذا الاختلاف راجع الى أذواق أصحاب الوحى . فمن يوم أراد الناس بالله ان يتكلم استنطقه كل منهم على طريقته وجعله يقول ما يريد هو قوله . ولو انهم لم يستمعوا الا لما تكن قلوبهم من قوله لما كان على الارض الا دين واحد»

هذا الدين الواحد هو الدين الطبيعى الذى عرضه القسيس في سابق تعاليمه . اما اديان الوحي فكثيرة ومتعددة ويدعي كل

منها انه دين الهدي والحق . فاذا سألت أصحابه كيف عرفتم أن دينكم دين الهدى والحق أجابوك « كذلك قال الله...وما ادراك ان الله قاله ... انه قسيسى وهو به عليم »

عجب أن تكون تلك لهجة المؤمن روسو. وهو هذا العجب الذى يدعونا لنفصل هنا بعض الشئ رأيه في أمر الوحى والنبوة من غير ان نعرض له بنقد أو اقرار ولأن نكثر من ترجمة نصوصه التى اضافت في هـذا الباب الى الصيغة الخطابية التى يمتاز بها أسلوب روسو صيغة تهكمية قد كان فولتير الملحد الساخر أحرى بها وأجدر

وانما دعا روسو لهذه اللهجة القاسية ما رآه وهو نصير حرية العقل والفكر من ضرورة مهاجمة سلطان الكنيسة المستبد مهاجمة عنيفة . ولما كان سلطان الكنيسة قائما على الاستئثار بكلمة المسيح واحتكار تفسيرها واعتبار التفاسير جزأ منها وردها جميعا الي الله فلم يكن النقد البسيط كافياً لعزعة تيار مستبد زاده مر القرون ثباتا وقوة. صحيح أن قيام البروتستانتية في القرن الخامس عشر وانتشارها بعد ذلك هد من ركن الكثلكة في بلاد شتى. لكن البروتستانتية كانت مذهبا تعبديا تقليديا كالكثلكة وكل ما فيها أنها جعلت للشروح والتفاسير الكنائسية مكانا ثانويا الى جانب الكتاب المقدس . فهي بذلك لم تكن الا ثورة جزئية

على النظام القائم . وهي بذلك لم تزد على أن اضافت فرقة جديدة من الفرق المتدينة المتعصبة لمذهبها المستعدة لان تريق في تعزيزه و نشره الدماء و تضحى بالمهج والارواح . وليس هذ ما يريده روسو المتسامح عدو التعصب والجمود ؛ فلم يكن بد من قيامته فى وجه ما اعتقده أساس التعصب ؛ وأساس التعصب هو الانحياز الاعمي لشخص ورفعه عن مستوي البشر وتقديسه ثم تأليهه

«ولولا بناء الدين على الوحى لما كان شئ من هذا التعصب والجمود. فلننظر الآن لهذا الوحي أساس المجازر والفظائع وأن يك عند أهله مهبط الهدى والحق

«ماذا عندك يا رسول الحق مما لاحكم لعقلى عليه؟ لقد تكلم الله فاستمع لوحيه!. ذلك شأن آخر . لقد تكلم الله . هـذا امر جلل . ولمن تكلم؟. لقد كلم الناس . لم اذن لم اسمع أنا شيئا؟ لقد القى على رجال آخرين ليبلغوك كلمته... الآن أرى . هم اذن رجال يلقون الي بما قاله الله ؛ الا أنه أحب الا ان أسمع الله بنفسى ؛ وما كان ذلك ليشق عليه . وكنت انا في حرز من الضلال . لقد حفظك منه بما ثبت به رسالة انبيائه . وبم ثبتها ؟ بالمعجزات . وأين هاته المعجزات ؟. في الكتب !. ومن وضع هذه الكتب؟. رجال . ومن رأي هـذه المعجزات ؟. رجال شهدوا بها . عجبا ؛ شهادات رجال دائما ؛ رجال ينقلون الي ما نقله اليهم رجال غيرهم.

ما اكثر الرجال بيني وبين الله ، فلننظر على كل حال ولنبحث ولنحقق ولنقارن . أو لو أعفاني الله من كل هذه المشقة كنت تراني أقل اخلاصا في خدمته

« لنفرض ان العظمة الالهية رضيت ان تنحط فتجعل انسانا واسطة ارادتها المقدسة . اترى من العقل والعدل ان يفرض على الجنس البشري كله طاعة هذا الرسول ما لم يبين الله للناس انه رسوله . وهل من الحق ان يكون كل ما لديه من دلائل الاقناع بعض مظاهر خاصة يقوم الرسول بها امام نفر من الناس لاقيمة لهم. ثم لا يعلم سائر الناس عن هذه المظاهر شيئا الا بالتناقل والاشاعة . ولو انك صدقت من المعجزات ما يقول الشعب والبسطاء من كل أمة انهم راوه لكانت كل طائفة هي طائفة الهدى ولكانت المعجزات اكثر من الظواهر الطبيعية عدداً . ثم لكانت كبرى المعجزات انعدام المعجزات حيث يكثر المتعصبون الذين يلقون العنت في دينهم، تلك سنة الطبيعة لا تبديل فيها وهي تدل على حكمة اليد المدبرة للطبيعة . فلو ان المستثنيات كثرت لضل بي التفكير فيها ، وان ايماني بالله لاجل من ان اصدق هذا الجم من معجزات لا تليق بحكمته ولا بكرامته »

ولو أن الرسول الذي يزعم أنه من عندالله بدل سنته فاطلع

الشمس من المغرب واخلف نظام الفلك ودك الجبال وغير معالم الارض لصدقناه ان اتى في الكون بما لا طاقة لغير مبدع الكون به . اما سخريات السحر فلا معجزة فيها. او ما القي سحرة فرعون عصيهم كما القي موسى عصاه فانقلبت حيات كلها؟. وهل كان السحرة رسلا صغارا أم كان موسى ساحرا كبيرا . واذا عجزت المعجزة عن اثبات الرسالة فكيف تثبت الرسالة المعجزة. أم نكون بذلك في حال من التداول لا تدل على شيء .

يجب أن توسم الرسالة الآتية من عند الله بسيما الالوهية. فليس يكفي ان تستثير بها الافكار المضطربة التي يلهمها التفكير لاذهاننا . بل يجب أن تعرض علينا عبادة وادابا وقواعد جديدة لما نتصوره من صفات الله . فاذا هي لم ترشدنا الا للاشياء السخيفة غير المعقولة ولم تلهمنا الا عواطف البغضاء لامثالنا والجزع من انفسنا ولم تصور لنا الا آلها مغضبا غيورا منتقما محابيا كارها للناس آله حرب وضرب دائم الاستعداد لان يهلك ويصعق لاينفك يقص امور العذاب والعقاب ويفخر حتى بمجازاة الابرياء اذن لما مال قلبي الى هذا الآله الفظيع ولحرصت على الديانه الطبيعية لاأتركها لاعتناق ذلك الدين مادام لامحيص من الاختيار "

وهذه الرسالات كلها تزعم انها على الحق وان غيرها على

الباطل . وتذهب الي رمي من لم يعتنقها بالكفر وتهديده بعذاب الآخره الغليظ . هذا على ان انك لن تستطيع أن ترد عن دينه رجلا ولد في دين من الاديان فاختلطت عقائده بلحمه ودمه ثم ظل في سذاجة الطبيعة ولم يجد من الوقت ومن العرفان مايمكنه من بحث الوف المجلدات التى كتبت في الديانات المختلفه ليرى اصلحها . ولو انه بلغ من العرفان هذا المبلغ لما كفت حياته كلها للوصول الي هذه النتيجة . أفيترك الناس طرا اعمالهم وواجبات حياتهم للقيام بهذا البحث العقيم جريا وراء مايسمونه سلام ارواحهم . وان هم فعلوا ذلك اتراهم يصلون الي شيء من هذا السلام ؟ أم تختلط امام اعينهم الوف الصور المضطربة التى وضعها الروحيون والمتكلمون والفلاسفة والشعراء فيزدادون ضلالا وينتهي بهم الامر الي الجنون .

وما قولك فيمن لم تصل لهم الرسالة ؟ اهم يجزون بعدم علمهم ؟ ان الوفا من ملايين البشر يدينون بغير المسيحية وبغير اليهودية وبغير المحمدية . فهل ارواح هؤلاء جميعا آوية حتما الي سقر . وهاته الاديان الثلاث . ايها على الحق . وما ذنب من ولد مسلما باسلامه وما ذنبا من ولد يهوديا بيهوديته .

على ان الانجيل يخاطب قلب قسيس السافوا ولا يستطيع له ردا . ولو كانت حياة سقراط وموته لحكيم فان حياه يسوع

وموته لآله

« هذا هو التشكك الذى بقيت فيه على غير ارادتى . لكنه تشكك غير اليم لانه لا يشتمل خطير مسائل الحياة العمليه. ولانى ثابت اليقين في المبادىء المتعلقة بكل واجباتى . فانا اعبد الله بقلب ساذج ولا ابحث عن علم مالا يقتضيه سلوكى

* * *

تلك تعاليم قسيس السافوا وتلك اسس الديانة الطبيعية . وقد احدثت رجة عند نشرها انتهت بالقبض على روسو كما سبقت بنا الاشارة وكما سنفصله في فصل مقبل . وهذا الدين هو فى نظر العلماء الواقعيين (الوضعيين) آخر صور العقل التجريدي ومظهر احتضار الايمان القلبى . ذلك بانك متى انكرت الوحي ورجعت الى حكم العقل ورددت الى الفرد حرية التفكير كنت قد ابحت لكل فرد ان يبحث ويحكم مادام على البحث والحكم قديرا. ولن تضمن ان يتفق نظر الباحثين والعلماء مع نظر قسيس السافوا . أولم ير قسيس السافوا نفسه ان فلاسفة عصره كانوا على خلاف في الرأى معه . او لم ير من بينهم الملحد والمتشكك والمادى . فاي ضمان له في ايمان الجميع بالدين الطبيعي الذي يدعو اليه . هو مادام قد اطلق العقل من عقال الوهم ورفع عنه سلطان الكنيسة فقد اباح له الحرية الطبيعية الكاملة . ومادام

حرا فلن تكون شعريات قسيس السافوا منتهى مدى نظره . بل سيخلف قسيس السافوا اوحست كومت وداروين وهربرت سبنسر وبرجسن وغيرهم من العلماء والفلاسفه والمفكرين . وسينادى لدانتك بالالحاد المطلق وبالنفى . وسيكون ذلك كله مظهر حرية الفكر التى دعا اليها روسو وستكون هذه الدعوة لذلك سببا لمطاردة الكنيسة اياه بقية حياته .

* * *

الي هنا عرف اميل الوجود وما فيه . وعرفه بعد ماتكونت ملكاته تكوينا يمكنه من الحكم عليه . والى هنا انتهى دور الطفولة والتربية . فهل لم يحن الوقت بعد ليتركه استاذه لنفسه يفكر حرا ويعمل حرا ويعيش حرا .

ذلك رأي الاكثرين من علماء التربية . ولكن حذار من اتباعه . ان الشاب في هذه السن احوج مايكون للمرشد المخلص الصدوق . واذا كان عقله قد بلغ حد القدرة على حكم الاشياء فان شهواته الناشئة قد تضل حكمه وتفسد تربيته وتدفع به في اسواء السبل . في هذه السن تتفتح ينابيع الحياة الجنسية الي حد قد تجرف معه حياة الشاب ثم تذره خاويا . وفي هذه السن ينفتح القلب للحب . فما لم يكن له من استاذه مرشد يهديه السبيل وسط هذه المخاطر زلت به القدم وسط الجماعات وبين

الشباب الذى يقدم له المثل السيء باندفاعه فى تيار الشهوات وامعانه في تحصيل كل مايستطاع منها .

على ان الذين يميلون للنصح الي الشباب في هذه السن يرتكبون شتي الاغلاط ويدفعون الشباب عن غير قصد الى حمأة اللهو واللذائذ . واول مايرتكبونه من ذلك انهم يلقون على الشباب من اعلى منابرهم قواعد السلوك وكانما نسوا انما يلقي من اعلى المنابر لايترك من الاثر الا بمقدار مايسمح لاول ظرف ولاول فرصة تصادمه بنسيانه ومؤاتاة ما يناقضه ، لان هؤلاء الخطباء يكتفون بالقاء الفكرة وتعزيزها بحججهم اللفظية . اما ظروف الغواية فتجر وراءها جندا من الآيات التى تعززها وتؤيدها تجر وراءها اللذائذ والشهوات والمثل الفاسد لابسة كلها براق ثوب الجمال والظرف والنعمة والمسرة . افترى تلك الحجج الا متطايرة امام هذه الدلائل الرقيقه . وهلا تكفى النظرة الضاحكة والابتسامة البديعة والثغر الحلو ولفظه العذب لتنسى الشاب ابلغ الخطب واطولها .

لذلك يرى روسو وجوب بقاء الاستاذ مع تلميذه ووجوب ملازمته اياه فى هذه السن ملازمة ضيقة ، على انه ينقله هنا من مركز الاستاذية الي مركز الصداقة ويجعله مع تلميذه بحيث يتباحثان ويتناقشان فى كل امر من الامور ، وهذه الصداقة وتلك

الملازمة تضمن ابتعاد الشاب عن الاوساط السيئة وما تقدمه من مثل فاسد كما تضمن ان يظل على أخلاق حسن

كذلك من اغلاط الذين يريدون توجيه الشباب توجيها حكيما يحميه مزالق الشهوة ان يبغضوا اليه الحب وأن يجعلوا مجرد التفكير فيه في تلك السن جريمة حتى لكأنما كان الحب للعجائز. وهذه التعاليم المضللة التي يكذبها القلب لا تقنع ابدا . وترى الشاب تقوده فطرته الامنية يضحك سرا من هذه التعاليم التعسة وان ابدي الموافقة عليها وينتظر الفرصة التي يعمل فيها على نقيضها . وهم في ذلك انما يواجهون الطبيعة . اما انا فأسلك سبيلا يضاد سبيلهم ثم أصل حتما الى الغاية التي يريدون بلوغها . فلست أخشى أن أملق فيه العاطفة الرقيقة التي تملأ جوانحه وانما أرسمها له كابدع ما في الحياة من صور السعادة لانها هي كذلك فعلا . وأود لو أنه مال معها . ومتى وصلت به الى الشعور بمبلغ ما يضاعف به اتحاد القلوب لذة الحس كنت قد كرهت اليه الفجور وجعلته حكيما ان جعلته محبا

«وانما اقول للشاب : ان قلبك يحتاج رفيقة فهلم نبحث عمن توافقه . وقد لا يكون وجودها بالامر اليسير . فان الفضل الصحيح نادر . لكننا ان نتعجل ولن نيأس . فليس من شك في وجود من توافق قلبك وسنجدها آخر الامر او نجد من تقرب منها»

ويصف روسو لاميل من يحسبها أوفق من تصلح له ويدعوها صوفيا ويسعى واياه للبحث عنها . وفى خلال هذا البحث يذهب روسو بتلميذه الى المجتمعات غير خاش عليه سوء أثرها أن صار بمنزلة تمكنه من الحكم عليها من غير اندماج فيها كما أنه وهو في بدء الصبا يستطيع ان يعرف اخلاق أهلها ووسائل الاخذ والرد معهم وسبل التصرف فيما يعرض أمامه من أمورهم . ولو انه غشى هذه المجتمعات صغيراً لتكونت في نفسه عادات قد لا يكون هينا عليه ان يتخلص بعد ذلك منها. وانما خطر هذه المجتمعات ما تزينه للشهوات من خادع المظاهر، لكن اشراف الاستاذ على تلميذه حصن يقيه هذا الخطر وضمان لبقاء سلطان العقل حاكما كل سلطان سواه . وسلطان العقل يدعو الشاب فى هذه السن لملاحظة الناس ملاحظة دقيقة . وليس أفتق للذهن ولا ادعى لدقة الملاحظة من الصالونات الجامعة

فاذا درس الناس واخلاقهم فى المجتمع كما درسهم ودرس شهواتهم من قبل في بطون التاريخ كانت امامه مواضع للنظر فيما يستهوي القلب الانسانى وفيما يصده. وتلك فلسفة مبادئ الذوق وهى اليق الفلسفات به فى هذا الوقت من حياته

«وتجارة ما بين الجنسين هى التى تجعل الذوق الحسن أو القبيح يتشكل بصورة خاصة ، ذلك بان رياضة الذوق نتيجة

لازمة للغاية التى ترمي هاته الجماعات لها ؛ لكن الذوق يفسد اذا تيسرت اللذة فابتذل الدلال . وعندى أن هـذا سبب من الاسباب الواضحة التى تبين لنا تعلق الذوق الحسن بالاخـلاق الطيبة .

«وانما يستشار النساء في الامور المادية التى يستطيع الحس الحكم عليها. كذلك فانما يستشار الرجال فى الامور الاخـلاقية المتعلقة بالعقل. ولو أن النساء كن ما يجب أن يكنه لاقتصرن من الامور على ماكان من خصائصهن ثم لصح عندئذ حكمهن. اما من يوم أقمن انفسهن حكما في الادب وأبحن لانفسهن تقدير الكتب وأكثرن من تأليفها فقد فقدن كل علم وكل معرفة . وليكن المؤلفون الذين يستشيرون النساء العالمات في أمر كتبهم على ثقة من سوء المشورة . وليكن الظرفاء الذين يستشيرونهن في أمر زيهم على ثقة من سوء هندامهم»

هذه المساءة الصغيرة الذى وجهها روسو للنساء ليست الا مقـدمة لما سيكتبه في القسم الاخـير من كتاب التربية عنهن وليست الا أثراً من اقتناعة السابق الذى عرضناه عند الكلام عن خطاب المناظر

وسيرى القارئ فيما بعد أن صوفيا ستكون خلواً من كل وب الا دعاء لانها ستكون صورة منمقة مجملة لتريز لفاسير

* * *

ذهب روسو بتلميذه الى باريس وطاف واياه في الصالونات ودرس واياه أخلاق النساء والرجال وكل همهما من ذلك البحث عن صوفيا، وقد استغرق ذلك زمنا كافياً لملاحظة الشاب مالم يسبق الي ملاحظته من اخلاق أهل زمانه وعوائدهم . وهو لم يقابل صوفيا كل هذه الاثناء لانها كما كان الاستاذ يعلم لم تكن مقيمة في باريس وانما أراد روسو أن يعرض صور المدنية على تلميذه المطواع . وما ندري كيف ضمن هذا الاستاذ أن لا يتعلق قلب أميل ببارييسية تقابله في المجتمعات والصالونات قبل الوقت الذى حدده وقرره لمغادرة باريس الى حيث تقيم صوفيا، فاذا تعلق قلبه ببارييسية رقيقة فما هي الوسيلة لخلاصه ، وهل يضمن روسو اذا هو انتزعه من ملاكه ليقذف به على الملاك الذي أعده له أن لا ينقلب ما يريده من سعادته شقوة وتعسا

لكن اميل ليس الا رواية التربية ، وأشخاص الرواية هم من خلق خيال المؤلف ، وخيال المؤلف أن يصرفهم على ما يشاء

لذلك كره اميل باريس وعظمتها وضجتها واخلاق نسائها ورجالها وذهب الي الريف وقابل صوفيا وكان من حظهما أن تعلق قلبه بها كما تعلق به قلبها وان أعانت الظروف على تيسير خطبة الفتاة له ، ولما اتصل الحب بينهما لم ير روسو أن الوقت

قدحان لزواجهما ولم ير أن دوره كمرب قد انتهى ، بل أخذ فتاه فطاف به بلاد العالم سنتين تباعا تعلم الفتي اثناءهما لغتين او ثلاثا من اللغات الحية وجاس فيهما خلال الممالك المختلفة دارسا طباع أهلها واطلع فيهما على النظم الحكومية لمختلف الدول وظل خلالهما يكاتب صوفيا وتكاتبه :وما اكثر ما يضرم البعد من لاعج المحبة والشوق وما اشد ما تفعل المكاتبة في نفس المغرمين

هذه ملاحظة نقر عليها روسو . فليس يبدو من محبوبك وهو بعيد عنك الا حسنه وليس تحمل كتاباته الا اطهر ما في نفسه واحلاه . فاذا جد بك الشوق له فانحدرت من مآقيك دمعة على القرطاس الذى يحمل اليه ملتهب شوقك وحار زفراتك رايت روحك حلت في نفسه كما حلت في نفسك روحه فيكنت اليه اكثر شوقا وكان هو بك اكثر هياما ووجدا . وكذلك تزيد الفرقة الحب ضراما وتربط القلبين برابطة الهوى والغرام

قال روسو .« ليست فكرة خلق الحب في نفس اميل قبل سياحاته من مبتدعاتى . واليك الحادث الذى الهمنى اياها

«كنت في البندقية ازور مربى شاب من الانكليز . وكنا حول المدفأ اتقاء برد الشتاء . وقد تناول المربى خطاباته من البريد وقراها ثم تلا واحدا منها على تلميذه واذ كان بالانكليزية فلم افهم منه شيئا ؛ لكنى رايت الفتى اثناء القراءة يمزق اكمام

قميصه الجميلة ويرمى بها في النار واحداً بعد الآخر ، وقد قام بهذا العمل بكل سكون جاهداً ان لا ياخذ احد منه باله ، فدفعني عجبي لهذه الفعلة ان احدق به ، فخلته متأثراً ، فانتظرت بالاستاذ حتى اتم تلاوته،ثم اشرت الى معصم تلميذه العاري وقلت : أفيكمن ان اعرف معنى هذا ؟

« فلما راى الاستاذ ما حصل ضحك ثم قبل تلميذه قبلة الرضى وشرح لى ما اردت بعد ان حصل على موافقة الشاب . قال :

« ان الاكمام التي مزقها المسيو جون انما اهدته اياها من زمن قريب احدي سيدات هذه المدينة . وقد تعلم ان خطبة المسيو جون عقدت فى بلده على فتاة يحبها ، وهي بهذا الحب وباكثر منه جديرة ، والخطاب الذى تلوته هو من ام الفتاة. وسأترجم لك الموضوع الذى ادت تلاوته الى ما رايت من اتلاف :

« ان لوسى لاتترك أكمام لورد جون . وقد جاءت بالامس مس بتى بولدهام وأمضت ساعه العصر معها وأرادت بكل مافيها من قوة أن تعمل فيما تعمل لوسى فيه . ولما عرفت أن لوسى قامت مبكرة هذا الصباح فوق عادتها أردت أن أرى ما تصنع فوجدتها مشتغلة بنقض ما صنعته مس بتي بالامس . ذلك بانها لا تريدان يكون فى هديتها غرزة واحدة من يد غير يدها »

وانى وان وافقت روسو على هذه الملاحظة الا انى لست

في الحق أدرى اذا كان هذا الحب الملتهب بنار الفراق هو الحب الواجب لسعادة الزواج . فقد ذكر روسو فى الهلويز أن الحب ليس عماد السعادة في الزواج، كذلك فان الفرقة والتخاطب يوحيان الي كل من المحبين بما عليه صاحبه من حسن. فاذا رأي كل صاحبه بعد ذلك ورأي لحسن تخالطه صفات لم تكن بادية كان ثمت خطر الانقلاب . وما التمس محبين استحال حبهما الى نقيضه. أفلا يحسن اذن أن يكون التعارف بينهما تاما وأن يطلع كل على كل صور نفس صاحبه وحالاته حتى يكونا فيما بعد بمأمن من كل طاريء

كنت مسافراً من لوسرن بسويسرا الى ايطاليا، وكان معي فى ديوان سكة الحديد شاب وفتاة فى مقتبل العمر . وقد تحدثنا وسألت الشاب عما اذا كان هو وعروسه يقضيان شهر العسل . فابتسم وقال ان من عاداتهم فى امريكا أن يذهب الشاب ومخطوبته فى سياحة طويلة قبل الزواج ثم يبتان بعدها فى الامر. وهم يسمون هـذه السياحة سياحة التجربة . لأن السفر خير ما يدل على أخلاق الشخص وخير ما ينبيء عن ميوله . فاذا اتفق الخطيبان بعد سياحتهما اقترنا معا وضمنا زواجا سعيداً تزيده ذكري تلك السياحة الطويلة سعادة بما تبعثه الي نفسيهما من صور وخيالات واحلام وتأثرات مشتركة . والا انبتت الخطبة على خير ما يكون الوئام... وقد قصصت هذه الحكاية على بعض من عرفت

من الفرنساويين في باريس، فوافق على الفكرة وذكر ان سياحة شهر العسل بعد عقد الزواج كثيراً ما تبين عن اخلاق غير محمودة عند أحد الزوجين، وكثيراً ماتكون بدأ النزاع فى حياة الزوجية. ولست أدرى اذا كان روسو قد وقف على هذه العادة الامريكية، لكننى على يقين من انه لو وقف عليها لما أقرها ، لا لتطرفها في الحرية، بل لانها تعطى المرأة حق الحكم على الرجل : وهذا ما لا يرضاه لجنس أول واجباته عنده طاعة الرجل والخضوع له

ولما انقضى الوقت الذى رآه روسو لازما لسياحات اميل عاد به الى صوفيا . واقترن الشاب بالفتاة . ومع ذلك ظل الاستاذ على مقربة منهما . « حتى اذا كان بعد أشهر دخل اميل الي غرفتى وقال وهو يقبلنى : هنيء فتاك يا استاذ ، انه يأمل التمتع بشرف الابوة عما قريب ، الا ما اكثر ماسيلقى على عاتقنا من صنوف العناية وما اشدنا احتياجنا اليك . وما ارى علم الله ان ادعك تقوم بتربية الابن بعد ما قمت بتربية ابيه. فما اريد ان يقوم غيرى بهذا الواجب الحلو المقدس ولو اتيح لى ان احسن الاختيار له بمقدار ما احسن الاختيار لى . لكن كن انت استاذ الاساتذة الشبان . فانصح الينا ووجهنا وسنكون طوع يدك . اننى سابقى فى حاجة اليك ما عشت. وانا اليوم اشد ما يكون لك احتياجا ان ابتدأت اعمال الرجوله . اما انت، وقد قمت بما عليك، فارشدنى لاسير على سننك، واسترح فقد حان الوقت الذى يحق لك فيه ان

تستريح . »

هذه العبارة هى ختام كتاب التربية . وقد آثرنا ان لا نذكر من الكتاب الخامس الذى افرده روسو لتربية الفتاة الا ما خص اميل. وسنطرح امام نظر القارىء بعض ملاحظات على طريقة التربية التى اتبعها روسو مع فتاه ثم نعود الى تربية الفتاة ورأى روسو فيها

***

بعد ثمانى سنوت من نشر اميل كتب احد المهذبين الى روسو يقول له أنه اتبع طريقته فى التربية مع تلميذ له فرد عليه روسو يقول : «لئن صح انك اخذت بالخطة التى جاهدت لرسمها فى اميل فما اشد اعجابى بهمتك . فان عظيم ذكائك يدلك على أن هذه الطريقة يجب الاخذ بها كلها او تركها كلها، وان خيرا الف مرة ان تأخذ بطرائق التربية المعروفة فتصوغ فردا كالافراد من تأخذ ببعض هذه الطريقة فلا تصوغ الا رجلا خائبا . . . وانت من غير شك لا تجهل المجهود العظيم الذي تكفلت به . فأنت مدي عشر سنوات صفر بالنسبة لنفسك، مسلم كلك بكل مواهبك الى تلميذك. فالعناية والصبر والثبات هى الصفات الثلاث التى لا تستطيع ان تتخلى لحظة عنها من غير ان تتعرض لخطر اضاعة مجهودك كله اضاعة تامة . ولحظة قلق أو اهمال او نسيان كافية لتنزع منك

ثمرة عملك مدى عشر سنوات ثم لا يكون لك ان تسترد مافقدته ولو أجهدت نفسك عشر سنوات أخري . ولعمرى لو ان شيئا استحق صفة البطولة والعظمة بين اعمال الرجال فذلك نجاح مثل ما اقدمت عليه . ذلك بأن قيمة النجاح تتناسب دائما مع ما انفق للحصول عليها من مواهب وفضائل . . . »

قال فاجيه: «ولن يستطيع الانسان ان يعبر بأحسن من هذا عن ان الطريقة صناعية بحتة لا تقوم الا كما تقوم قصور الوهم . وهى من سهولة الفساد فلا يمكن اعتبارها الا تصورا جنونيا ورواية وهمية»

ما نشك في ان هذا النقد صحيح فى مجموعه . فأين نعثر على هذا المهذب المتفاني فى اخلاصه ، والبالغ من الفضيلة والطهارة اقصى الحدود ، حتى ليقصر جهوده عشر سنوات بل عشرين سنة متوالية على تربيـة طفل واحد . وهل يستطيع هـذا الاستاذ مهما بلغ من حذقه ومهارته ان يغير من طبع الطفل او ان يحجب الموجودات عن ان تؤثر فيه على غير ما تؤثر في سواه وعلى غير ما تؤثر فى الاستاذ نفسه . ألم نر اخوين شقيقين بل الم نر توأمين احيانا يسلكان فى الترسة والتعليم سبيلا واحده ثم تختلف نتيجة التربية عند احدهما عن نتيجتها عند الآخر . فكيف بك تنتظر النتيجة التى قدرها روسـو لكل تلاميـذ روسو مهما اختلفت وراثتهم وطبائعهم وميولهم . كيف تنتج عند النبيه ما تنتج عند البليد وكيف تنتج عند

العصبي ما تنتج عند اللمفاوى . ما هو هذا الامتياز السحري الذى يجعلها تسوى بين طبائع البشر وقد أبدعت الطبيعة بينها من صور الاختلاف والتفاوت ما يقصر العقل عن تصور مداه

ما نشك كذلك في ان طريقة روسو تحوى شتى المتناقضات. فهو يزعم أنه يخلى بين الطفل والطبيعة مدى سنى التربية السلبية. وقد رأينا ان ما يلجأ اليه من الوسائل الصناعية يجعل هذه التخلية وهما من الاوهام كما يجعل تربيته أبعد عن الطبيعة من كل تربية سواها . وما ندرى بعد ذلك سببا لفضل وسيلته على غيرها من الوسائل المتبعة عند الطبقات الراقية فى البلاد المتمدينة وبخاصة فى انجلترا ؟ ثم لا ندرى بعد ذلك ما الجديد فيما كتبه ولم يسبقه اليه مونتني او الفيلسوف الانجليزى لوك(١) الا ان تكون صيغة الكتابة وتعاليم قسيس السافوا والا قلب بعض الافكار قلبا روائيا مدهشا .

قال فيلمن : « لن ينكر أحد على روسو بلاغته ودقة تحقيقاته عن الطفولة الاولى . لكنه كان أقل نجاحا فى كلامه عما بعد الطفولة . وهو رغم تكراره: أنظر كيف يفوق تلاميذى تلاميذكم ـ لا يبين للقاريء ما بين نتيجته والوسائل التى أدت اليها من صلة . صحيح

(١) راجع كتاب التربية لسينسرو سر تقدم الانكليز السكونيين لدمولان.

أن ما يعود روسو عليه تلميذه من كثرة الرياضة بالغ فى الحسن. لكننا لا نرى بعد ذلك كيف حصل التلميذ على ما يدعيه روسوله من صفات وأخلاق. والحق أن المؤلف ينقض الطرائق المتعارفة بأحسن مما يثبت به صلاحية طريقته. فهل ترى هذه الطريقة مؤدية حتما بالتلميذ ليكتشف العلم بدل أن يتعلمه. هذه فكرة ليست مفيدة وهى غير ممكنة. وأنت لا تفتأ ترى الاستاذ يوسوس الى تلميذه بالدرس بعد ما يهيؤه له. فمن نزهة يضل فيها الطفل لعدم معرفته وجهة السير الى حديث البستانى البير عن التملك».

لست حقا ارى كيف حصل تلميذ روسو على ما يدعيه استاذه من صفات له وأخلاق. بل لقد نكون فى حل من الشك فى نجاح طريقة روسو فى غير موضع من مواضعها. فكيف يكون التلميذ المسلوب الارادة الى الخامسة والعشرين من عمره ذا ارادة قوية بعد هذه السن. وكيف يعشق الحرية من بقى مقيدا بمهذبه من اول ايامه لا يرى الا بعينه ولا يسمع الا بأذنه ولا يفكر الا بعقله ولا يتصور الا بخياله. الا تراه متى خرج بعد ذلك الى ميدان الحياة وفاجأته شدائدها وغواياتها كان أبعد ايغالا فى الضلال عمن سواه. فاذا هو اتصل بأحد أولئك العصاميين الذين عصرتهم الكوارث من نعومة أظفارهم فخرجوا من بين مخالبها صلبا عودهم قوية شكيمتهم استسلم له وألقى اليه

مقاليد قياده وضل فى الحياة سعيه وكان من الخاسرين .

شرع روسو بعد نشر الاميل فى تأليف رواية أسماها (اميل وصوفيا أو المعتزلين) ولم يتمها . على أن ما ظهر منها يدل على شك منه كبير في تفوق طريقته في التربية على الطرائق المتبعة . فقد تزوج اميل من صوفيا وأولدها غلاما وعاشا زمنا في الريف بين مناظر الطبيعة الساذجة، ثم انتقلا الى باريس وخالطا جمعياتها وامتزجا بأهلها . وبعد زمن أبت الزوج على زوجها أن يقربها، وظلت كذلك شهورا تقلب هو فيها على أشواك الحيرة . ثم ألح علي زوجته فى المسألة فقالت له : « تنح يا اميل عنى فقد نجس سواك فراشك وتركنى حاملا . وما كنت لتقربنى بعد ذلك ما عشت » . ففر اميل مثقلا باليأس وظل فى يأسه زمنا حتى اذا ادكر دروس أستاذه طابت نفسه والتمس للزانية عذرا ، وأعجب منها بما بقى لها من فضيلة الصراحة بعد الكبوة ففغر لها، ولكنه أخذ فتاه وارتحل حتى نزل عند نجار اشتغل معه آملا تخفيف آلامه بكد نفسه واجهاد قواه . لكن الأم لم تقدر على مفارقة ابنها. فسارت حتى اذا بلغت باب المصنع نادت بصوت مستعبر وهى تنظر الي ابنها الثانى : « كلا انه لن يسلبك أمك. فتعال نبتعد فليس لنا هنا مستقر ». عند ذلك ترك اميل لها غلامه وهاجر الي الجزائر فأخذه الوالى عبداً ثم أدناه

منه وكرم مجلسه .

قال جول لمتر : « هنا تقف الرواية فنسائل أنفسنا : ماذا أفاد اميل من تربيته الخاصة اذا كان قد عاش عيش سواه بعد ما جاء الى باريس . » وانما ينكر روسو غرائب طريقته بعد ما وضعها كما أنكر من قبل غرائب خطابيه عن العلوم وعن التفاوت، وهو يخفف من الحدة التي ظهرت في كتابه صدطرائق التربية المتعارفة كما خفف من حدته ضد المناظر بعد اذ نشر خطابه لدالمبير عن المناظر .

ولم يكن لروسو في الحقيقة بد من هذا الانكار والتخفيف. فقد كان يغلو غلوا غير معقول أول ما تختمر فكرة في رأسه . فاذا واجهه الناس بمعقولهم ومعروفهم ارتبك ولم ينجه من ربكته الا نظام في التقهقر أبدع فيه وبرع حتى كان الناس يظنونه في تقهقره منتصرا .

لكنه كان يترك بعض الافكار الغريبة العزيزة عليه تمر من غير أن يمسها أثناء تقهقره بسوء . ففكرته في أن يبدع الطفل العلم من غير أن يتعلمه ليست أقل أفكاره غرابة، وهو مع ذلك بها مدل وعليها حفيظ . وكأنما يريد بكل انسان أن يبدأ جهود القرون الماضية ليكشف ما كشف الجدود من أسرار الوجود . وبديهي أن هذه الأسرار لم تسلم مفاتحها الا بعد أن أخذت

عنوة و بعد ما تجندل تحت أسوارها ألوف الشعراء والفلاسفة والكتاب والعلماء المنقبين . فكيف يذرها روسو تغلق أبوابها من جديد دون فتاه قانعا بأن يوسوس له منها بشيء من صور النجوم وظاهرات الطبيعة .

لا يريد روسو أن يجيب على هذا الاعتراض الا بما أجاب على ما وجه لخطاب العلوم والفنون من الاعتراضات . وهو بعد ماكتب اميل لا يزال يرى أن السعادة الخالدة فى احضان الطبيعة لا تحوجها العلوم بل هى تنقص من اطرافها . واذا لم يكن من هذه العلوم بد فقليلها يكفى ، اما الفنون فلا

وأغرب الافكار العزيزة على روسو فكرته الاساسيه . فهو يزعم أن الانسان طيب بطبعه . وهو يرتب على هذه الطيبه كل نظامه فى التربية . يكفى عنده ان لا تدع موضعا ينفذ منه الشر الى نفس الطفل لتنجو به ولتكون قد كونت رجلا طيبا

قال قاسم أمين : «يولد الانسان شريرا خبيثا قاسيا محتالا كذوبا . الولد الصغير لا يعرف الا نفسه ولا يرى الا نفسه ولا يحب الا نفسه ولا يألم الا من نفسه وفيه أثرة هائلة لاحد لها . هذه العيوب تنمو مع الطفل وتبقى فيه حتى يصل الى سن الرجال فيتعلم كيف يخفيها . يحسن ظاهره ويستر باطنه . اعظم ما تنتجه التربية الجيدة اذا استمرت بلا انقطاع هو ان تقطع من النفس

فروع هذه الشجرة الخبيثة ولكنها لا تستطيع ان تقلع جذورها»

استغرق النظر فيما اذا كان الانسان طيبا بطبعه أو خبيثا بطبعه جهودا لا تقل عن الجهود التي أنفقت في بحث الخير والشر ومصدرهما ومآلهما . وأثار بحث المسألة من الجدل ما أثار بحث غيرها من المطلقات التجريدية الأخرى . وعندنا أن كل هذا البحث والجدل عقيم . وليس الانسان طيبا بطبعه وهو ليس خبيثا بطبعه. وانما هو ذرة في دائرة الوجود قضى عليها بالحياة الانسانية ولا تعلم لهذا القضاء سببا ولا تفهم للحياة غاية ولا تدرك للوجود غرضا . وهي تعيش حتما في انتظام مع غيرها من ذرات الوجود . وكلما زاد انتظامها طابت حياتها . ولذلك كنا نعتبر خير حالات الحياة وأسعدها أكثرها مع حياة مجموع الوجود انتظاما وأكثرها لها ملاءمة... صحيح أنا لم نعرف بعد ، وقد لا نعرف أبدا ، ما يجب علينا لكمال الانتظام حتى نبلغ كمال السعادة. ونحن لا نزال نداب وراء هذه الغاية بالاستفادة مما يكشف العلم عن صلات الاشياء بعضها ببعض وعن صلتنا بالاشياء وباستيحاء الهامنا الغريزي الناشيء من شعورنا بأثر الاشياء فينا وأثرنا فيها شعوراً لما نعرف مظاهره وأسبابه. فاذا أمكن حصول هذا الانتظام ، وقدر ان حصل ، يومئذ نكون قد بلغنا غاية التقدم ويومئذ تسترد الانسانية الفردوس المفقود .

لكنا ولما نصل من التقدم لشيء الا ان يكون سرابا لانعرف له وجودا فان الخير والشر والحسن والقبح والطيبة والخبث وما اليها من أشباهها لاتزال فى حيز المطلقات التجريدية كل ماعندنا من علم بها ليس الا حدسا وضعناه على قدر معارفنا الناقصة الضيقة الدائرة ووضعناه بمقدار اقتضته ضرورات الحياة وظروف العيش . قد يكون هذا المقدار النسبي قريبا من الحقيقة المطلقة ـ ان كان للحقيقة المطلقة وجود ـ وقد يكون بعيدا عنها ، بل وعلى النقيض منها . ذلك أمر لانعلمه ولا يستطيع أحد ان يقطع فيه برأى .

من ثم كان بناء التربية على تقدير الطيبة الطبيعية أو الخبث الطبيعى بناء واهن الاساس . وانما التربية تهيئة الناشىء للعيش في الوسط المحيط به عيشا يقربه من فكرتنا فى السعادة قدر المستطاع . ولما كانت هذه الفكرة مستفادة من العلم بالوجود الخارجى علما قائما على الملاحظة والاستقصاء ، ومن الالهام النفسانى فيما لم يحكمه العلم بعد ، فوجب ان نطرح الصور المادية التى كشفت قواعد العلم عنها للانسانية امام حس الطفل كى تدخل فى دائرة معارفه وكى يكون الهامه النفسانى أقرب الى مظنة الصواب فيكون هو أقرب الى السعادة .

سهل بعد ذلك ان يشعر الطفل بأن كثيرا مما يقع تحت

حسه انما كان من عمل الانسان · وأن مثل هـذا الكثير مثل الشجرة الكبيرة يتمتع هو بثمرها وان كان فضل غرسها لغيره. وسهل كذلك ان يتصور ما أنفق لتحصيل هذه الغاية من الجهود على ممر الاجيال . فاذا هو شعر بذلك وتصوره، قدر ما للانسانية عليه من فضل ، وشعر بأنه مدين للماضى بسعادته وطمأنينته فى الحاضر . ورأى ان أداء هذا الدين الواجب الاداء انما يكون بمواصلة جهود الماضى لتقريب الانسانية من تمام الانتظام فى مجموع العوالم كى تتحقق غايتها وتتم لها السعادة

من هنا تنشأ فكرة الواجب . وليس الواجب الا أداء ما تراه دينا عليك . وقد ذكر اميل فاجيه ان روسو لم يلهم فتاه هذه الفكرة ولم يرب فى نفسه ارادة الوفاء . وقد يكون هذا صحيحا. قد يكون صحيحا ان روسو لم يقو ارادة فتاه اطلاقا وانه لم يشعره بما للماضى عليه من فضل ودين واجب الوفاء . لكن لروسو عذره . فهو يعتبر جهود الماضى جهودا ضالة أفسدت الانسانية ونشرت الشقاء ومكنت للتعس. وهو يرى فى السكون الى الطبيعة والركون الى الطمأنينة الخالدة وسيلة السعادة · وهو يرى ان تقوم الفضيلة على أساس من الاشفاق والرحمة بالانسانية المعذبة الدائمة الانين

قال : انما يتكون الجنس الانسانى من سواد الناس . أما

ماليس سوادا فهو من القلة بما لا يحرك العناية لحسابه . . ولو أن الغنى كان أكثر من الفقير شقوة وتعسا لما دعى ذلك للاشفاق عليه . فانما تعسه من عمله وسعادته في يده . لكن شقوة البائس من عمل الأشياء ومن قسوة الحظ الذى يثقل كاهله . ولاسبيل لنزع احساسه المادي بالتعب والهمود والجوع . ولا تجدي الحكمة ولا يجدى الذكاء لاقالته من هموم مركزه . . . . . احترم جنسك واذكر أن أساس تكوينه مجاميع السواد وانك اذا نزعت منه الملوك والفلاسفة فلن يكون لانتزاعهم أثر ولن يتأثر سير الوجود . وبالجملة علم فتاك حب الناس جميعا وان لايكون من طبقاتهم في واحدة منها بل فيها جميعا . وحدثه عن النوع الانسانى بمحبة واشفاق . واياك ولفظ التحقير . فما كان للانسان ان يثلم شرف الانسان . »

ظاهر هنا أن روسو جعل الرحمة والمحبة أساس الخلق . وظاهر أنه إوحى للأستاذ بأن يلهمها فتاه على انها بعض مظاهر الوجود الطبيعية، لا على انها قواعد تواضع الناس عليها، وذلك لكى تنغرس فى نفسه كما تنغرس صور الموجودات المادية التى تقع تحت حسه . ومتى انغرست انتجت بعد ذلك كل ثمرها حتما . ومن ثمارها فكرة الواجب على معنى خاص. فاذا لاحظنا مع فاجيه أن فكرة الواجب طبيعية فى الانسان كان هذا المعنى الخاص توجيها

لها الى وجهة قد لا تتفق مع رأى نيتش (Neitche)من وجوب تطبيق مبـدأ تنازع البقاء على أقسى صوره فى الجماعة الانسانية، ولكنها من غير شك تتفق مع النظرية المسيحية نظرية التفانى والاخاء . وما كان لنا مع ما نعلم من شدة اخلاص روسو للمسيحية رغم نفيه النبوة والرسالة ان نطالبه بالأخذ بنظريه غير نظريتها.

وما دام روسو قد اقام اساس الخلق على الرحمة والمحبة فمن الخطأ كذلك رميه بأنه اراد لطفله ان يبقى جاهلا قواعد الخلق حتى الثامنة عشرة من عمـره . وهو انما اراد ان يأخـذ الطفل بهذه الظواهر على أنها وسائل الحياة العملية من غـير اضطرار المقاربة بينها ومقارنتها واسـتنباط القواعد منها حتى لا يكره ذهنه الضعيف على النظر فيما لا يطيق هضمه . فان الذهن كسائر الاعضاء وكالمعدة اذا أهمل فسد، فاذا أعطى بمقدار حاجته بما يقوى وطلب المزيد . أما ان أنت أرهقتـه أتلفته التخمة وقـل ان يعود الى شىء من الصلاح . ومقدار حاجة ذهن الناشىء مشاهدة الاشـياء وظواهرها، فاذا هو أحاط بكل منها منفردا جـد فى مقارنتها . فاذا أبدت له المقارنة أوجه الشبه وصور الخلاف بينها فكر فى الاسـتفادة من هـذه الوجوه والصـور لوضع قواعد يصدر عنها . وقد لا نستقل هذه العملية الذهنية عن سائرها أبان التدرج من الصغر الى الشباب . لكنها على كل حال تحتاج المعونة

على هـذا الترتيب . ففرض المشاهـدات . ثم تقريب المتوافق والمتخالف . وأخيرا الاعانة على اسـتنباط القواعد . وهـذا ما فعـله روسو حين وضع فكرة التربيـة السلبية ثم الالهام ثم الحوار والجدل .

وليس يصح للشاب بحث نظام قواعد السير فى الحياة الا فى الحال الاخيرة من حالات التربية . ذلك بأنها نتائج المشاهدات والمقارنات اسـتنبطها الذهن بعـد بحث وتمحيص . والبحث والتمحيص لايكونان الا بعد ان تكمل للذهن قوته . ولوانك وضعت امام الذهن هذه القواعد على اطلاقها ولما يتم نضجه اذن لكنت كمن يثقل معدة الرضيع بالغذاء الدسم يريد به ان يسرع الى النمو فلا يكون من وراء عمله الا تخمة الطفل تخمة قد تودى بحياته . وما نشـك فى ان البـله العام الذى يصيب أكثر طبقات الانسانية انمـا سـببه ما ألقى على أذهان أهلها ولا تزال فجة ضـعيفة من أحمال لاطاقة لهـا بها . لذلك أصابها الهزال رغم استمرار نمو الجسم وصرت ترى رؤوسا كانها رؤوس الرجال تعمرها أذهان لا تزيد قوتها على أذهان الأطفال

وهذ هو ما حدا برسو ليترك الفلسفة والدين وقواعد الخلق جانبا لا يلقي بنشي منها الى فتاه قبل السادسة او الثامنة عشرة من العمر . تلك كلها مضاربات نظرية اقتضى الوصول اليها جهاد

اصحاب الأذهان الناضجة والنبوغ العقلي مدي اجيال كثيره. وهم لم يصلوا اليها الا بعد ان كشفوا من دقائق مخبات الاشياء عما لا يقع تحت حس الطفل. فالقاء هذه النظريات والدقائق اليه يفسد ذهنه بل يتلفه

ولما كانت حاجة الطفل لمشاهدة الاشياء هي الحاجة الماسه في المدة الاولى من طفولته، ثم لما كانت حاجته لمقارنتها هي الحاجة الماسة بعد ذلك مباشرة، فان أضاعة وقت الطفل في قراءة الكتب صرف له عما يعوزه. انما تحتوي الكتب صور الاشياء لا حقائقها. وتحتوي منها وجها خاصا قد يكون أقل وجوهها استلفاتا لنظر الطفل. وفي قصر الطفل على الصور دون الحقائق خطر كبير. فان مشاهدة الأشياء على حقيقتها تبعث في النفس نشاطا لاستجلاء هذه الحقيقة. كما ان المقام بين الصور يجعل الطفل ينمو خياليا محبا للأوهام متطلعا الى ما يرسمه له ذهنه على الورق لا الى ما تمليه عليه الموجودات من صور الواقع. والحياة واقع لا خيال وحقيقة لا وهم. فالتعلق بالخيال والوهم ليس يصلح للحياة

لكن ترك الطفل يشاهد الاشياء زمنا ثم يقارنها زمنا آخر ثم يستنبط القواعد والاحكام منها بعد ان تتكون عنده ملكة التفكير يحتاج وقتا طويلا قد لا يتسنى للكثرة المطلقة من الناس الذين يضطرون لكسب حياتهم. هذا اعتراض يوجه الى مذهب روسو. وهو اعتراض وجيه لا على التربية كمذهب ولكن على

التربية كوسيلة لكسب العيش. قال فاجيه: «اذا كان مرمى التربية سرعة كسب وسيلة للعيش كما هو الحال حتما وضرورة لاغلبيتنا العظمى فيجب ان تكون التربيـة عملية او ان شئت مادية الى درجة أكبر. وليس معنى ذلك ان هذه التربية العملية هى التربية الصحيحة أو التربية الحسنة. تلك تربية سيئة بل هي ليست تربية اطلاقا. انما هى مران يخلق العامل المتقن ولا يجعل الطفل رجلا. وما دامت الحالة الاستثنائية الطيبة التى اختارها روسو تجعل الطفل غير محتاج لكسب العيش فيكفى ان يحتاط له بتعليمه حرفة يدوية يستطيع الكسب من طريقها اذا ساء حظه. اما ماخلا ذلك فتربية عامة كلها تثقيف الذهن ورياضة العقل ونماء حسن التقدير ورفعة القلب ـ وان يكون وسيلة ذلك: الحديث الطويل الجد الدقيق مدى عشرين سنة مع حكيم تعينه كتب قليلة: وتلك هى التربية الصحيحة، فليس العلم غرضها وانما غرضها تفتق الذكاء. يسير عليك بعد ذلك ان تحصل ماتحتاجه أو تشتهيه من علم وأن تحصله سريعا. صحيح ان هذه التربية لاتؤهلنا لنضال العيش. لكن اصحاب هذا النضال لم يكونوا موضع تفكير روسو. (١)»

ظاهر من كل ماسبق ان مذهب روسو في التربية مذهب غير ممكن تطبيقه. وظاهر ان فى كتاب التربية اراء تستحق النقد

---

(١) راجع اميل فاجيه القرن الثامن عشر ص ٣٦٨٠ ـ ٣٦٩

واخرى خاطئة الخطأ كله . وظاهر كذلك ان مجموع فكرة روسو في التربية بديع عظيم وان الكتاب يحتوي من الافكار ماجعل المسيو مارتن يكتب عنه فيقول : رغم ماأثارت بعض اجزاء اميل من اعتراضات عليه فالكتاب يكاد يكون أعمق بحث وجد في لغتنا وفي غيرها من الكتب الحديثة عن الطبيعة الانسانية . وهو قطعا أكثر الكتب دفعا للتفكير فيما لايكون تفكير المؤلف فيه صوابا. وانك لفي حل من ان تقول غير مبالغ ان هذا الكتاب كان سفين سلام التي بها القدر على أمواج مذاهب التشكك والمادية وانه جمع بين دفتيه كل العواطف والمبادىء الاساسية للحياة الاخلاقية التي كانت على شفا الهاوية. وليتصور الانسان القرن الثامن عشر خلوا من روسو ثم ليسائل نفسه جادا مخلصا ايان كان ينتهي سير العقل الانساني

هذا المقام الكبير الذي اعترف به الكتاب جميعا لكتاب روسو وتلك الافكار الجمة التي قررت حقوق الطفل كما قرر العقد الاجتماعي حقوق الانسان هو الذي أدي بنا لنفيض في عرض الكتاب كل هذه الافاضة . ولو ان روسو كان دقيقا في شأن المرأة دقته في شأن الرجل كريما معها كرمه مع أمثاله لعرضنا قسم اميل الاخير مع ماسبق عرضه . لكن روسو كان خصما لحرية النساء لانه كان شديد الولع بهن . وخصومته تدعونا لان نفرد الفصل الاتي للكلام عن الكتاب الخامس من التربية (صوفيا أو المرأة)

— ١١ —

استأثر الرجال كبرا وغرورا بحق الحكم على كل شيء . والمرأة بعض الأشياء التي استخضعوها لحكمهم . فما لها من حق وما عليها من واجب رهن أمرهم وطوع اشارتهم. وقد بالغوا في ذلك حتى بلغوا في بعض العصور ان جعلوا حياتها وحريتها بيد بنيها بل بيد مواليها . وكانوا ولا يزالون في بعض الأحيان يدفنونها حية مع زوجها الميت. وهي لم تصل بعد الى التمتع بكافة الحقوق التي يتمتع بها الرجل قانونا وفعلا في أي بلد من البلاد . ومن يدري اذا كانت ستصل الى هذا المقام يوما من الأيام .

لم هذا ؟ لأن الرجل قوي الساعد والمرأة ضعيفته. وللقوة بحكم الطبيعة حق لا يمكن انكاره . واستعمال حق القوة يتكيف حسب الأزمنة والأمكنة بصور مختلفة: فحيث الرجل معرض لفتك الأقوى تراه يفتك بالاضعف . وحيث تحول حيلة الرجل دون فتك غيره به تراه يجعل للحيلة حقا يقف دون الفتك. ولو ملكت المرأة يوما من وسائل الحيلة ما يعجز الرجل عن كشفه لخضع الرجل لسلطانها ولأقرها بحق التحكم فيه .

لكن الرجل في حاجة الى المرأة . لذلك كان يرعى مع استبداده بها حرمات لها غير قليلة . وكان يرعى جانب الرأفة واللطف ليصل

منها الى غاياته . كذلك فالمرأة أم الرجل واخته وزوجه ومحبوبته والرجل ابو المرأة واخوها وزوجها وحبيبها . وهذه صلات تمنع عليه ان يقسو بها الى الحد الذى يقسو عنده القوى بخصمه الضعيف ، وتقضى عليه حتما ان يرتب علاقاته معها ترتيبا يضمن لكل منهما سعادة متبادلة من غير ان ينزل القوى عن عرش قوته

وقد كانت المرأة ولا تزال ترى من الرجال هذا الاستئثار بالحكم ، وكانت ولا تزال تسخر منهم لما هم فيه من باطل الغرور وما هم عليه من كاذب الكبرياء . وهى تسخر منهم لأنها تشعر من جانبها بأن قوتها ابعد من قوتهم أثرا وان كانت أقل ظهورا . قوتهم كقوة الحيوان الضخم يجر العربة وهو كلما ثقل حملها اشتد بنفسه اعتزازا وان كان اكثر امام عربته اهتزازا . وقوتها كقوة الكهرباء لا تقع عليها العين وهى تهز العوالم وتدك الرواسى وتزعج الآلهة .

ولم يفت الرجال على عظيم تبلدهم أن يشعروا بهذه القوة . وقد خيل اليهم لما ارادوا التخلص منها ان القمع والقسر يخفف من آثارها ، فألزموا المرأة عقر دارها ومنعوها من الاختلاط بالعالم مخافة ان يزيد هذا الاختلاط فى سلطانها ، وحبسوا عنها ما كشفوا من قوى الوجود لتبقى ضعيفة بجهلها . فلم يغن ذلك عما ارادوا شيئا . اذ رضيت المرأة بالنصيب الذى قدروه لها مقابل

ان استخضعتهم لحاجاتها واستذلتهم لشهواتها وجعلت منهم مطي رغائبها واهوائها ؛ وكذلك كان الفوز في هذا النزال القديم الخالد بين المتحابين المتنافسين لسلطان المرأة الرقيق

على ان شيئا من النور قد بدأ يدخل الى عقول الرجال المتبلدة، فبدؤا يشعرون بأنهم يزيدون في سلطانهم على المرأة اذا هم تركوها تصادم الوجود وتحتال لنفسها على اتقاء قسوة صدماته. ولما كانت المرأة هي ابنة الرجل قبل ان تكون امرأة ذات وجود مستقل، فقد فكروا في اعدادها لهذا الصدام كما يعد الرجل ، حتى اذا خرجت الى الصدام فلم تكف نظراتها وبسماتها ودلالها ورقتها لتلين من جلمود قلب الوجود ورأت ان لا مفر من الاستعانة بالرجل الغليظ ليشدد من لينها ويقوى من ضعفها ادركت ما له عليها من يد وجميل وراعت القصد فيما كانت تعنته منه قبل فيه من حاجاتها وشهواتها ورغائبها وأهوائها .

وبين هذين الموقفين موقف القسر في عقر الدار وموقف جلاد الوجود كانت المرأة ولا تزال تتردد . . . . .

واشد الرجال عسفا بالنساء واكثرهم حرصا على اخضاعهن هم اشدهم تعلقا بهن واحناهم ضلوعا عليهن . هؤلاء العشاق للجنس يرون المرأة كالزهرة ان عرضتها للافح الهجير او قارص الزمهرير ذبلت وزال جمالها . وهم يرونها كالغزال ان قوى استأسد فزال

عنه ما جعل لهم عليه السلطان . وهم يشعرون توهما ما لها من ذكاء وحيلة فيخشون ان تنقلب الحيلة سياسة توجه بها المرأة الرجل حيث تشاء . وهم يرون لذلك امكان زوال ملكهم وهم أحرص من ان يرضوا زواله .

وقد رأى القارىء مبلغ تعلق روسو بالنساء وهيامه بهن هياما دفعه الى أعمال الجنون فى شبيبته وفضح مستور حياته فى رجولته . فلا بدع اذن أن يكون رأيه فى تربية النساء رأيا فائلا فاضحا فى جنونه . هذا مع الاعتراف بأن للجنون منطقا لا يقل عن منطق العقل دقة : وبأن في اندفاعات الجنون الهامات حق لا يصل اليها منطق العقلاء .

يقول اميل فاجيه ردا على اعتراض الذين يذهبون الي عدم جواز تعليم المرأة الي حد تتساوي عنده مع الرجل او تفوقه فيه: (لن يكون تعليمها كذلك شرا بل يكون هو عين الحكمة . فانما يكفى الرجل ان يتقن حرفة للكسب وان يحسن اداءها وان يعمل على حد قول الامريكيين لكسب المال مرأته : اما المرأة فمدبرة للمنزل ، عليها واجب ان لا تسرف فى المال . وذلك اشق كثيرا من كسب المال . وهى زوج يجب عليها أن لا تضايق زوجها وان تعمل الذهن لتنشيطه وتشجيعه وان تقدم له النصيحة الطيبة التى لا يعنى سواها بتقديمها وان تنجيه من ملال الحرفة

بما تتبادله معه من حديث ذكي طريف ان لم يجده فى بيته ذهب الى النوادي باحثا عنه فيها . وهى أم مكلفة بأن تدخل الى نفس ابنائها الافكار العامة الأولى ذات الأثر الدائم مدى الحياة . فهي من أجل ذلك ولتحسن صنعا يجب ان تكون اذكى بكثير من الرجل وان تصل من العلم الى استغلال كل ما يحتويه هذا الذكاء وكل ما كان ممكنا أن يؤديه)

هذه الكلمة من اميل فاجيه نقدمها ليرى القارىء الى أى حد يريد اكابر الكتاب ان تصل المرأة . وهي كلمة كتبت فى سنة ١٩٠٩ أى قبل نشوب الحرب العالميه بخمس سنوات . اما بعد اذ رأى العالم ما قدم النساء من جليل الخدم للانسانية فى حرب دامت رحاها دائرة مدى سنوات اربع بلا انقطاع ولا هدنة ولا ملال فقد اصبحت كلمة فاجيه اكثر من ان توصف بالاعتدال واعترفت الأمم للنساء بحق التقدم حتى فى السياسة الى مصاف الرجال .

لكن روسو يرى ذلك هذرا وهزوا . ان المرأة لم تخلق للعلم ولا للحكمة ولا للتفكير ولا للفن ولا للسياسة . وانما خلقت لتكون أما تغذو اطفالها بلبنها وتتعهد ضعفهم بحسن عنايتها وتسلمهم من بعد ذلك للأب او للمربى يعنى بهم على نحو ما توحى به الطبيعة . وترجع هى للقيام بوظيفة الامومة فتضع

وترضع وتتعهد لتعود فتضع وترضع وتتعهد من جديد . وهى واطفالها دائما فى عنق الرجل يقوم عليهم ويكدلهم ويربيهم ويهيؤهم للحياة بحسب الالهام الطبيعى

اذن فالعانس والارملة ومن نكبت بزوج آخر : كل أولئك لايدخلن فى حساب روسو . وربما كان جوابه اذا سئل عنهن انهن خرجن على نظام الطبيعة فلا مكان عنده لهن

وما دامت الامومة هى الوظيفة الطبيعية للمرأة ثم مادامت فى عناية الرجل وقوامته وما دامت الطبيعة قد جعلت بذلك بينهما من الفروق مايجعل الكلام فى المساواة بينهما سخافة مضحكة . مادام ذلك « فان المرأة الكاملة والرجل الكامل لايجب ان تتشابه أذهانهما الا كما تتشابه وجوههما .

« والجنسان فى اجتماعهما يعملان للغرض المشترك ولكن لاعلى طريقة واحدة . ومن هذا الخلاف ينشأ الفرق الاول المميز للعلاقات الخلقية بين واحد الجنسين والآخر . فيجب ان يكون أحدهما ناشطا قويا والآخر مستسلما ضعيفا كما يجب ان يريد أحدهما ويقدر على حين يكفى الآخر بعض الشىء من المقاومة .

« ومتى استقر المبدأ ترتب عليه ان المرأة خلقت خصيصا لتيسر الرجل فاذا وجب على الرجل ان يسرها بعد ذلك فتلك ضرورة اقل ظهورا . فانما فضل الرجل فى قدرته وهو انما يسر المرأة

بقوته » .

وما دام هذا الاختلاف الطبيعي قائما فمن خطل الرأى سلوك سبيل واحدة فى تربيتهما . انما التربيه تنمية الملكات الغريزية التى أوجدها القدر لملائمة الوجود . ووجود المرأة ليس هو وجود الرجل فملكاتهما الغريزية تختلف واذن فيجب ان ينمى فى كل مايعاونه على الحياة التى اعدلها والتى تختلف جد الاختلاف عن حياة الآخر

« بل ان كل الملكات المشتركة بين الجنسين ليست موزعة بينهما على نسبة واحدة . وهما فى المجموع يتعاوضان . فالمرأة احسن كامرأة منها كرجل . وهى كلما ارادت ان تتمتع بحقوقها كان لها الفضل . فاذا ارادت ان تغصب حقوقنا بقيت دوننا . ولن يستطيع الانسان ان يعترض هذه الحقيقة العامة الا بمستثنيات يعتمد عليها اصحاب المصلحة من أنصار الجنس الجميل » .

وانك لترى مصداق ماتقدم فيما تلاحظه من ميول كل من الجنسين أول مايبدأ التميز عندهما . فترى الفتاة ميالة للزينة تمضى كل نهارها حول عروستها . تغير مئات المرات من ملابسها وتدأب فى البحث عن صور جديدة من زينتها سواء أكانت هذا الصور قبيحة أم حسنة . وهذه العناية التى تبذلها الفتاة فى تجميل لعبتها ليست الا مظهرا لكمين مافى نفسها من

ميل للزينة لا تستطيع رده على نفسها فتخلعه على تلك اللعبة التى تتصرف فيها . فاذا بلغت من العمر حدا يجعلها تقدر على تجميل نفسها رأيت عنايتها وقد انصرفت رويدا رويدا عن عروستها ورأيتها انفقت كل ما أوتيت من ذكاء وجهد لتبدوا فى أجمل مظهر تمكنها الطبيعة من الظهور فيه .

وقد يسهل عليك بعد ذلك ان تستنتج مما تقدم من ان المرأة خلقت لمسرة الرجل ، كما ترى أن وجود المرأة خاضع لحكم الجماعة عليها لا لاعتباراتها الخاصة ولا لآثارها الشخصية . فهى مهما وجدت فى تجميل ذاتها من السخرية ومن اضاعة الوقت لا تستطيع أن تهمل جمالها ، والا بدت فى حال من الكآبة يمجها معها الناس جميعا. وهى كلما اضافت الى جمالها كلما زاد الناس اعجابا بها وتقديرا لها

الا ان وظيفة الامومة هى الوظيفة الطبيعية للنساء جميعا . وهى لاشك فى حاجة الى تجميل المرأة نفسها حتى يعنى بها الرجل الذي أعدته الطبيعة لها. ولكن ثمت الى جانب كمال الجمال ما تحتاجه حياة الزوجية والامومة من معارف . وادارة البيت ليست بالامر الهين لذاته . فيجب ان يعنى بتصحة المرأة حتى تنشأ قوية على احتمال مشاق الامومة كما يجب ان تتعلم ما تحتاجه تلك الادارة من معلومات ومن صنائع . فاذا أتقنتها تعين عليها ان تعرف الموسيقى والرقص تسر بهما زوجها وتدخل بهما الى بيتها من معانى النعمة

مالا غنى عنه .

لكن التعليم الذى يريده روسو للمرأة لايتعدي درجات المعرفة الاولية البسيطة . لقد رأيته فى تربية أميل يطعن على الكتب وعلى العلوم وعلى الفنون ويريد من فتاه شابا قوي البناء سليم الجسم حسن الادراك قديرا على معرفة الاشياء وحسن تقديرها من غير حاجة لدرس علم خاص أو التبحر فى بحث شيء من الاشياء. وقد رأيته يعتبر المرأة مخلوقا ضعيفا مستسلما وجد فى الحياة متاعا للهو الرجل ومسرته . وخلق ضعيف العقل كما خلق ضعيف البدن . فهو لن يرى بعد ذلك فى تعليم المرأة الا سخافة وسخرية

«يقولون: انه لايجدر بالرجل ذى التربية أن يتصل بامرأة لا تربية عندها ...الا ان فتاة بسيطة فجة التربية لاحب الى من فتاة عالمة ذأت ذكاء وخاطر تجيء فتقيم فى بيتى سوق أدب تجلس هى على رأسه. فانما الفتاة ذات الذكاء والخاطر وباء زوجها وأبنائها وأصدقائها وخدمها ووباء الناس جميعا . ذلك بانها وهى فى سماء نبوغها الرفيع تحتقر كل واجباتها كامرأة وتبدأ تريد ان تكون رجلا . فينظر الناس اليها بعين الزراية ويوجهون اليها مر النقد عن حق . ولن يسلم انسان من النقد ماخرج عن الدائرة التي هيأ القدر له المكان فيها ليدخل الى دائرة لم يتهيأ بها . وكل هاتيك

النسوة ذوات الملكة والموهبة الكبيرة لاحترام لهن الا عند الفئة البلهاء . فالناس يعرفون دائما من هو الفنان أو الصديق الذي يمسك بالقلم أو بالريشة حينما يعملن. فاذا كان للمرأة مواهب حقة دلس غرورها مواهبها . فانما كرامة المرأة ان تبقى مجهولة ومجدها في احترام زوجها ومسراتها في سعادة أسرتها. وأني اليك أيها الباري احتكم . اذا أنت دخلت الى غرفة امرأة فأي الامرين أحسن عندك أثرا وادعى بك لاحترامها . أن تراها عاكفة على أعمال جنسها معنية بأمور بيتها محاطة بملابس أبنائها أو أن تلقاها تكتب الشعر على منضدة زينتها تحيطها كتب من كل الانواع وتذاكر نقشت على كل لون . الا لوان الناس كانوا عقلاء جميعا لوجب ان تبقى كل فتاة متعلمة فتاة طول حياتها »

« وما للمرأة والعلم . «ان البحث وراء الحقائق المطلقة والنظرية ووراء قواعد العلم وكل مايرجى لنشر الافكار ليس من خصائص المرأة . انما يجب ان تقتصر معلوماتها على مايحتاجه العمل . وهي المكلفة بتطبيق مايجده الرجل من المبادئ . أما خواطر النساء فيما لايمس واجبهن فيجب ان تنصرف الى معرفة الرجال أو الى المعلومات الرقيقة التي تتعلق بالذوق وتقتصر عليه. وذلك بأن مظاهر النبوغ تتعدى مدى مراميهن، وان ليس لديهن من الدقة والانتباه مايكفل النجاح في العلوم الدقيقة . كذلك فأن المعارف الطبيعية

أو المادية هى من متناول أكثر الجنسين عملا وأكثرهما مرانا واحوطهما بالاشياء نظرا وأشدهما قوة وأقدرهما لقوته استعمالا مزن بها مابين الكائنات المحسة وقوانين الطبيعة من صلات وروابط»

ليس للمراة من العلم إذن فائدة . والمرأة مخلوق اوجده القدر للهو الرجال ومسراتهم فيجب لذلك ان تعنى بدرس الرجال . ويجب ان تتفنن فيما يجلب للرجال المسرة ويملق ذوقهم ويجب ان تنظر للاشياء وان تتصل بها وان تمارسها بمقدار ما يرضى الرجال ـ فاذا هى نجحت فى ذلك فقد ادت الواجب الذى خلقت له . واما ان هى تعدته وجعلت لنفسها شخصية مستقلة وأرادت ان تتصل بالعالم والكائنات عن غير طريق الرجال فقد ضلت سواء بسبيل

وماذا يرضى الرجال . ان الاجابة على هذا السؤال غير ميسورة . لان للرجال فى كل زمان ومكان ميولهم واذواقهم وشهواتهم . وقد وهبت الطبيعة المرأة ملكة لا تراها عند الرجل الا لدرجة قليلة . تلك هى دقة الملاحظة . فاذا انت رضت هذه الملكة فيهن من نعومة اظفارهن رأيتهن سريعات الى معرفة ميول الرجال واذواقهم وشهواتهم سريعات الى ارضاء هذه الميول والاذواق على طريقة تبلغ من الدقة عند المرأة الكاملة مايخلق بينها وبين الرجل ارقى العواطف وارق الاحساسات

وما دام رضى الرجل هو غاية تربية المرأة فيجب ان تسلك معها سبيلا غير الذى سلكته فى تكوين اميل . وقد رأيت ان اميل لايجب ان يكون ثرثارا وان يقصد الى الفائدة من عمله . ورأيت انه يجب عليك لتسكت الفتى ان تساله: ماالفائدة من ذلك. أما الفتاة فلا يصح اسكاتها . انما تسأل عن الاثر الذى يحدثه كلامها. ويجب ان تعود الكلام الرفيق والرد الدقيق وحسن العبارة وجميل الاشارة وما الى ذلك مما يجذب قلب الرجال فيكرسون حياتهم لفخر المرأة المحبوبة ولسعادتها

كذلك « مادام سلوك المرأة خاضعالرأى المجموع فيجب ان تخضع عقيدتها للسلطان العام بأن تعتنق كل فتاة دين امها وكل امرأة دين زوجها . ولو ان هذا الدين الذي تعتنقه كان لغوافأن خضوع الام والاسرة طائعين لحكم الطبيعة يمحو مافى الخطأ من ذنب عند الله ».

وليس القصد من اعتناق الفتاة دين امها أو زوجها ان تجعل الدين موضع بحثها وأنما القصد أن يحل محل العقيدة منها لهدايتها وارشادها . « ويجب لذلك انتحتفظ ببناتك فى أضيق حدود قواعد الخلق وان تدخل الى نفوسهم ان ليس لشئ مما تتعلمه فائدة الا مادلنا على الوسيلة لفعل الخير ، وان لاتجعل من بناتها متكلمات منطيقات وأن لا تعلمهن من امور السماء الامايفيد الحكمة

الانسانية وان تعودهن الشعور دائما بأنهن بمرآى من الله ومسمع، وان تتخذه شهيدا على اعمالهن وافكارهن وفضائلهن ولهوهن، وان يعملن الخير غير مترددات لانه يحبه، وان يحملن الضر فانتات فلهن عنده جزاؤه، وان يكن في كل يوم من أيام حياتهن مطمئنات لما قدمن أن هن تقدمن له. تلك هي الديانة الحقة. وهي وحدها البعيدة عن كل غلو وضلال وتعصب. ومهما دعا الداعون الي ما يحسبونه أرقى من ذلك واسمى فهي عندي الوحيدة التي أقربها واعترف.»

لكن روسو كان قد رأى ان لا تعرض على اميل أية عبارة عن الدين قبل الثامنة عشرة من عمره. وكان قد علل ذلك بأنه قبل هذه السن لا يستطيع فهم قواعد الدين. فكيف به وهو يرى المرأة أضعف من الرجل عقلا يسارع الى تلقينها عقيدة أمها وزوجها ويطالبها بالوقوف عندها والايمان بها.

وقد رد روسو على هذا الاعتراض الواضح بقوله. «من الجلي أنه اذا قصر باعم الذكران من الاطفال عن ان يكونوا لانفسهم فكرة صحيحة من الدين فأحر بالفكرة ان تكون فوق متناول تصور الفتيات. ولنفس هذا السبب ارى ان احدثهن عنها في سن متقدمة. ذلك بأنه لو وجب أن ينتظر بهن حتى يستطعن مناقشة هذه المسائل العميقة مناقشة ضيقة فقد يبقى الانسان ابد الدهر ثم لاتحين هذه الفرصة».

على ان الاعتراض السابق ورد روسو عليه يثيران مسائل شتى . فكيف يتأتى لك ان تمرض مسائل الدين على الفتاة وتحجبها عن الفتى . وهو اذا سمع امه تخاطب اخته عن الدين أو رآهما تصليان لم يستطع ان يمنع نفسه عن النظر فيما يفعلان . فأن أنت حاولت منعه والزامه الطاعة فأنك تدخل الى نفسه أحد احساسين. أن الدين من السخافات التى وضعت للنساء فلا يصح الاخذ به : أو أن في متناول اختــه مالا يستطيع هو ادراكه . وفى الحالين تكون قد هيأت متاعب للمستقبل قد لا يسهل اجتيازها .

لـكنك اذا غرست قواعد الدين فى نفسه من نعومة أظفاره عرضت نفسك الى خطر آخر فهو اما أن يتعصب لما عرفه من الدين لانه عرفه ولما يستطع فهمه . واما أن ينزل عنه يوم يبلغ أشده ان يرى فيه شيئا لا يقره عقله

ومن هنا تنشأ صعوبة يتخطاها روسو ولا يعيرها كبير اعتبار. وهي عندنا صعوبة خلقها روسو بوضعه المرأة فى مستوى منحط عن مستوى الرجل بكل هذه المراحل . ولو أنه لم يتأثر بادعاء السيدات دعيات الادب والفلسفــة فى عصره ونظر فى الامر نظرة أكثر رفقا وأعلى حكمة ولم يعمه عشــقه النساء لرأي أن الفارق بين المرأة والرجل ليس بمقدار ما خيل اليه وان اختلاف وظائفهما فى الحياة التناسلية لا يقتضى كل هذا التفريق فى طرائق

تربيتهما . وهو مادام قد قرر وجوب تربية الشاب والفتاة تربية جسمية متينة واعترف بضرورة اعدادهما لمعرفة ما في العالم فأن أدوات التربية الجسمية كأدوات المعرفة متعادلة للجنسين . وانما هو استعدادهما الذي يوجه كلا بعد ذلك في طريقه .

وهل حسب روسو ان الفتيان جميعا من نوع واحد في الاستعداد . أو لو عالج غيره الموسيقي الى سن الاربعين كنت تراه يفشل فشله . وهل من يعالج التحرير والادب من نعومة أظفاره ينجح نجاحه وهو لم يعالجهما الا بعد الاربعين . ولكن روسو عاش في عصر كان للمطلق وجود فيه . فبحث هو عن المطلق من ناحيته وخيل اليه أنه وجد في تلك الأفكار الضئيلة الضيقة التي شغلته مدى حياته فنسج حولها من بدائع الأدب ما بقي ليجلو عنى حين تلاشت تلك الأفكار مع تلاشي المطلق امام تقدم النظر العلمي .

من هذا المطلق اعتقاده ان المرأة خلقت لمسرة الرجل ولهوه وأنها لذلك مدعوة كافة ان ترتب حياتها لتنال رضاه . ولسنا ندري مبلغ صحة هذا الرأي امام ما اثبته العلماء من ان الذكور من انواع الحيوان تسعى لاستغواء الاناث برائع جمالها . ويشتد بها هذا السعي ابان فصل التناسل . فذكر الطير يباهي بريشه وبرخيم صوته . وذكر الوحش يباهي بقوته وجماله . وتضعف الانثى

امام هذا الاستعواء و تخضع له ويكون التماسل نتيجة هذا الضعف والاستعواء

على ان روسو لم يلاحظ شيئا من هذا بل أمعن فى رأيه من ان المرأة متاع الرجل . وان الفتاة يجب لذلك ان تراض على الخضوع من اول أمرها . فانما الخضوع شأن النساء بحكم الطبيعة حتى ليشعر الفتيات أنفسهن بلذة الطاعة اول واجباتهن . وادن فلا حرج على المربي فى اكراههن وقمع حريتهن . ولا جناح عليه اذا عاقبهن . وان من نتائج هذا القمع ما نرى فى النساء من مرونة هن فى حاجة اليها فى حياتهن فهن دائن فى قوامة رجل وهن دائن طوع حكم الرجال وليس لهن ان يضعن أنفسهن فوق حكم الرجال »

ويحل الامر عند روسو ان المرأة تابع من توابع الرجل يجب أن تأخذ الصورة التى ترضى الرجل . وروسو يجعل نفسه مقياس هذا الرجل الذى يجب ان ترضيه كل امرأة . فهو يضع أمام نظره ما امر به من تحكم النساء فى أمره وتسلطهن عليه وعجزه أمامهن ويريد من المرأة التى ترضى على مزيد أن لا تكون مثارا لشيء من هذا التحكم ولا ذلك السلطان وان لا تعرض الرجل أيا كان لما تعرض له روسو من الوان الالم والعنت .

وقد مر بك ما لاقاه روسو من النساء . مر بك مبلغ حبه

لهن وعجزه امامهن ومبلغ استخفافهن به مع عطفهن عليه استخفافا وعطفا كان ينتهي به الى كراهيتهن والفرار منهن واحدة بعد الاخرى . فهو لم يطق مدام دبناي ولامدام دودتو ولا مدام دلكسمبور ولا واحدة من السيدات ذوات النبل والكرم وصاحبات الفضل عليه . كلا بل ولم يطق « أمه » وخليلته مدام دفارنس . لان هاتيك جميعا كن متعلمات وكن يجعلن من حياته موضعا للعبث به . لذلك يجب أن ينتقم لنفسه من جنسهن . ويجب أن تكون النساء جميعا من صنف تريزلفاسير جهالة وغباء لان تريزلفاسير وحدها هي التي استحقت تفضيل روسو على رغم ما كان يجده في غباءها وبلهها من عجب ورغم ما كانت تفتن فيه أمها من اساليب الخداع للاحتيال على سلب مايكسبه هذا البائس العظيم من المال القليل

فانت ترى أن روسو كان ذاتيا صرفا حين معالجته موضوع تربية المرأة . وشأنه في ذلك شأن المغرمين بالنساء جميعا . فكل مغرم بالنساء الي حد الهيام . أو ان شئت فقل مع اميل فاجيه ان الكثرة المطلقة من هؤلاء المغرمين الهائمين ليسوا من انصار النساء . فهم لا يريدون أن تحصل المرأة على أي صفة من صفات الرجولة وانما يريدونها مخلوقا خاضعا متعلقا بهم ضعيفا الضعف كله محتاجا لان يسر الرجل غير محتاج الا لأن يسره . وذلك أمر طبيعي ،

فالمغرم بالنساء انما يقصد الى غاية واحدة هي امتلاك المرأة امتلاكا بالفعل . وامتلاك المرأة عسير اذا كانت ذكية عالمة عارفة بشؤون الحياة قادرة نفسها حق قدرها شاعرة بان لها وجودا مستقلا عن وجود الرجل وانها في حل من أن تنافسه في الحياة اذا هو اراد أن يدخل معها ميدان المنافسة . مثل هذه المرأة القوية النفس لن تسمح لأحد بامتلاكها . بل لعلها تسعى هي لامتلاك الرجل أو لعلها تريد أن تساويه وأن تكون واياه في مستوى واحد فهي صاحبته وصديقته مادام وفيا مخلصا ومادام بينهما من تبادل الحب والاحترام مايديم المحبة والصداقة ، وهي غنية عنه غير مبقية عليه اذا انقطع الوفاء او ذبل الاخلاص . وما كان لهذا المدنف المدله أن ينصح الناس ليجعلوا من المرأة هذا المخلوق العسير الامتلاك . ولا كان له أن يخلق أمام اهوائه وشهواته صعابا وعقبات قد لا يتغلب عليها و بخاصة اذا كان حيا عاجزا ضعيف الحيلة بمقدار ما كان روسو . فلتكن المرأة اذن جاهلة ساذجة ولتكن رقيقة مطواعة حتى يتيسر لهذا الاحمق روسو أن يمتلكها وحتى يأمن عبثها به وحتى يستطيع أن اراد أن يحبسها في صومعته فلا تشكو الحبس ولا تطلب الحرية التي اباحها الله للناس ليتمتعوا باستجلاء محاسن خلقه وليشاركوا الوجود مشاركة حرة تزيد حياتهم وحياة الوجود قوة ونماء .

* * *

أتري الناقد لرأى روسو فى هـذه المسألة يري أن يؤخذ فى تربية الفتاة بمـا يؤخذ به في تربيـة الفتى . أتراه يذهب الى وجوب تدريب الفتاة على جلاد الوجود حتى اذا صارت امـرأة كان لهـا أن تقف من الرجـل الموقف الذى تختاره هى وأن لا تخضع لما يقسرها الرجل عليه . لعل الجواب ليس من السهولة بحيث يكتفى فيه عن نقد رأى بالاخذ بنقيضه . وهل كان انكار الشيء اعترافا بضده الا عند العقول الساذجة البسيطة. ان انكارك على شيء أنه اسود لا يقتضى أن يكون هذا الشيء ابيض . فان بين السواد والبياض من مختلف الالوان ما يجعل التحديد عسيرا وان كان الانكار يسيرا . ونفيك أن أمرا وقع ليـلا لا يقتضى حتما انه وقع نهـارا . فساعات السحر وساعات الشفق تشارك الليل فى ظلمته والنهار في نوره . فاذا كان ذلك هو الشأن في أمر المرايات التى تقـع تحت حسنا فما بالك بغير المرايات من متناول الافهام . بل ما بالك بمسألة كالتربية ليس يكفى فيها الحس وليس يكفى فيها التفكير ولا تقطع فيها التجربة برأى مادام معنى التربية البلوغ بالانسان الى خير حال يتلاءم فيها مع الوجود الذى خلق فيه ملاءمة تجعله اكثر ما يمكن متاعا بالوجود وسعادة فى الحياة من غير أن يكون متاعه وسعادته حملا على الوجود ولا عيا الا على

اهل هذا الوجود

مابالك بمسألة كالتربية يختلف النظر اليها من زمن الى زمن ومن قطر الى قطر . تتأثر بالطقس وبالجو وبالصدف السعيدة أو التعسة التى توجد فيها أمة من الامم بل وبالصدف السعيدة او التعسة التي يوجد فيهـا الفرد . اليس من الحق أن يقال فى التربية ماقيـل في الطب . ليس ثمة امراض وانمـا ثمة مرضى . كذلك ليس ثمة تربية وانما ثمة اشخاص يجب تربيتهم

من المتعذر أذن أن تضع قاعدة مطردة للتربيـة عامـة . وأصعب منه أن تضع قاعدة لتربية الفتاة. ذلك بأن المرأة كجنس لم تصل بعد الى موقف محـدود في أمر مالهـا وما عليها . واذا كان الرجال لايزالون يتوقعون صورا من التطور في شؤونهم فهم يرسمون لهذه الصور حدودا وهم يقدرون لهـذه الحدود مواقع . وفي مقـدور الفكر أن يتوسم امكان حـدوث هذه الصور أو اسـتحالتها . وان يتوسم مدي هـذا الامكان وأن يرتب عليـه نتائجـه . ولـكن التطـور في شأن المرأة لايزال على حال تجعل قرار الفكر عنـده عسيرا . لأن الفكر لايقر على غير مستقر الا حـدسا . فاذا رأيت الـكتاب يرسمون قواعد لتربية المرأة فلا تحسبنهم واقفون عندها الا الزمن الذى يقتضيه انتقال المرأة الي طور جديد . وقـد يطول هـذا الزمن وقد

يقصر . لكن عسيرا على كل حال ان تعرف ماستكون علاقة المرأة بالرجل في هذا التطور الجديد . وعلاقتها بالرجل وحظها الى جانبه من الحرية ومقدار تعلقها به او استقلالها عنه ، ذلك هو مايجعلها توجه تربيتها الى خير مايصلح للرجل ولها .

ونحن نحسب مع ذلك ان خير مايضمن تطور المرأة الى الخير أن تربى تربية حرة مطلقة الاطلاق كله . فهى أذا عودت مكافحة الوجود طفلة استطاعت كفاح الاجتماع امرأة . وهذه القوة النفسية التى أراد روسو أن يمتلىء بها فؤاد أميل يجب أن تغرس في نفس الفتاة . لأن المرأة أضعف بنية من الرجل . وكل انثى أضعف بنية من الذكر . فهي فى حاجة لأن تكون قوية النفس حتى لاتجتمع عليها ضعفان . ضعف الجسم وضعف الفؤاد .

لقد انصرفت جهود الرجال في الماضى ليزيدوا المرأة ضعفا وليشعروها بأن لاسبيل لسعادتها ولطمأنينتها في الحياة الا عطفهم عليها وبرهم بها . وهم يبيعونها هذا البر وذلك العطف فى مقابل خضوعها لهم . لذلك فسدت ملكاتها ولجأت الى الخديعة والحيلة . ولو أنهم جعلوها تدرك دائما ان قوة النفس تعدل قوة الجسم لكان لها أن تقف وإياهم في ميدان الحياة تعاونهم أضعاف ماتعاونهم اليوم — فاذا أرادوا الاعتداء عليها جزتهم عن العدوان عدوانا . وليس احفظ للسلام من تعادل القوي . كما أنه ليس أحفظ

للدولة من العدل بين أفرادها .

أنظركم بلغ فساد المرأه بسبب عسف الرجل بها واضعافه نفسها الي حد انحطت معه عن الحيوان . ان أنثى الحيوان لا تسلم نفسها للذكر الا لتلد. أما المرأة فتسلم نفسها للرجل لتنال عطفه . وأنثى الحيوان لا تتملق الذكر ولا تتزين أبن له لان نفسها أقوى من شهواتها . وذكر الحيوان هو الذى يملق الأنثى ويتزين لها فينفش شعره أو ينشر ريشه أو ينشدها أغانيه الرخيمة . أما المرأة فهي التى تملق الرجل وتتزين له وهي التى تحرك فيه ضعف نفسه ليعطف على ضعفها .

أما تعليم المرأة فأمر يرجع الرأى فيه الى البيئة التى تنشأ فيها والي مبلغ حاجتها من العلم . ولست أدري لم نحصر الفتاة فى دائرة ضيقة من المعارف . انما العلوم التي يتلقاها الناشىء ابان شبابه وسيلة لكشف مافى الحياة من جمال ولاستغلال مافى الوجود مما يزيد الحياة قوة . فلم لا نضع هذا السلاح فى يد الفتاة . لم لا نمهد لادراكها السبيل لكشف مختلف مافى الحياة من صور الحياة . وهى بعد ذلك متوجهة حتما الى ماتسوقها طبيعتها الخاصة الي التوجه له من هذه الصور . ومادمت قد حصنت نفسها وازحت عن ذهنها ذلك الستر الذي يحجب ماكشف عنه العلم فقد ايقنت انك لم تفعل الا خيرا

قد يكون صحيحا أن المرأة تدرك من العالم مالا ندرك . ويفوتها منه كثير مما ندرك . لكن العلم الذى كشف من شؤون العالم لم يكن من وضع الرجال وحدهم . ولم يكن من وضع النساء وحدهن . وانما هو شركة لكل فيها نصيب . ولكل منها حظ . وقد تفيد امرأة مالا يفيده رجل . وقد تكون المرأة التى تكتب عن تربية المرأة اكثر توفيقا من روسو اذا هى افادت من العلم مايمهدلها سبيل التفكير والكتابة .

* * *

على أنا وان نقدنا رأى روسو فى تربية المرأة فانا لانمل تكرار ماسبق لنا ذكره . ان فى صحائف (صوفى) من الاوصاف والملاحظات مايستحق الاعجاب . وان الاسلوب فيها لهو دائما اسلوب روسو . ذلك الاسلوب الموسيقى البالغ فى تجاوبه حدود الابدع

* * *

وظهر كتاب التربية فكان ظهوره بدء متاعب روسو وشقوته . لاقى بسببه من العنت مامر بك فى الجزء الاول من هذا الكتاب . قرر برلمان باريس القبض عليه فاضطر للفرار من فرنسا . وأصدرت حكومة جنيف مثل هذا القرار فى شأنه . وصادره السوربون وطعن عليه اسقف باريس وحرمه البابا . وكان

فراره من فرنسا مقدمة حياة التجوال التي عاد اليها والتي انتهت به الى الجنون او وقفت به على حافة هاويته

وقد اعان روسو على الفرار من باريس ما كان باقيا لديه من بعض ماكسبه من كتاب العقد الاجتماعي وما اعانه به جماعة بالكسمبور . وفيما هو في فراره وانتقالاته بين البلاد المختلفة في سويسرا رد على اسقف باريس بكتاب وجهه اليه . وعلى حكومة جنيف بخطابات الجبل. وسنعرض لهذه الردود وللعقد الاجتماعي وللاعترافات ولأحلام في الفصول الباقية التي نضمنها الجزء الاخير من هذا الكتاب